الفصل الثالث

طرق الإصلاح

١ ـ نهضة الشرق

١ ـ شدة القهر تؤدى إلى الانفجار :

لن ينهض الشرق من كبوته ، ولن يسترد مكانته التى طالما حنّ إليها أهله إلا إذا عرف أدواءه ومواطن الضعف فيه ، وإلا إذا علم كيف يسد تلك الثغرات العديدة التى نفذت إليه منها أطماع وجيوش الدول الأجنبية . وقد أجمع المصلحون ممن عرضوا لمشكلة تدهور المسلمين على أن الاختلاف السياسى والدينى أفضى إلى ظهور طبقتين كانتا وبالاً على الإسلام، وهما طبقة الملوك المستبدين وحلفاؤهم من العلماء المنافقين ، كذلك اتفقوا على أن هذا التحالف قضى على الروح الدينية الحقيقية ، وعكس معايير الأخلاق ، فثبّط الهمم ، وشغل الناس عن دنياهم بحجة الاستعداد لآخرتهم ، مع أن من واجب المسلم أن يعمل لهما معاً . لذلك كان من الطبيعى أن تتوالى النوازل على الأمة الإسلامية خلال العشرة القرون الماضية ، مما أدى إلى استسلامها لنفر قليل من أبنائها ، ثم زاد البلاء شدة عندما أخذ الأجانب ، فى مطلع العصر الحديث ، يعبثون بأقدارها ويسخرونها كما تسخر الأنعام أوماهو أشد من ذلك سبيلا .

على أن هذه المصائب والكوارث المتتالية ، ولا سيما كارثة الابتلاء

بالسيطرة الأوروبية ، أزعجت الغافلين ، ونبهت النائمين ؛ لأن أية أمة من الأمم إنما تسلك مسلك الانحطاط والانحلال إذا غلب عليها الاستبداد السياسى أو الروحى أو كلاهما معاً . فإذا هى بلغت غاية من الخضوع والاستخذاء ، ولم يعد فى القوس منزع فزعت من ركودها ، وحاولت المحافظة على بقائها . ذلك أن الأجنبى لا يريد الاستعمار فحسب ؛ بل يحرص ، فى التحليل الأخير ، على إفناء الأمم التى تخضع له . فإذا استطاع أن يفنيها فعل ، كما حدث فى القارات التى كشف عنها الأوروبيون منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى الآن ، حيث أبيدت ملايين من أهل البلاد الأصلية تحت ستار نشر الحضارة الأوروبية . والحق أنهم أبيدوا ليفسحوا المجال أمام النازحين من دول ضاقت بسكانها .

فإذا عجز المستعمرون ، لسبب ما ، عن إبادة أمة بأسرها اتخذوا إلى ذلك سبلا مختلفة ، كأن يحاولوا محو خصائص هذه الأمة وتقاليدها ولغتها ودينها لكى يسهل عليهم إدخالها فى فلكهم أو إدماجها فى شعوبهم ، كما حاولت أن تفعل فرنسا مع بلاد الجزائر التى تقول عنها إنها مقاطعة فرنسية ، أو جزء من أرض الوطن ، لكل فرد من أفرادها أن يخضع للقوانين والتقاليد الفرنسية حتى يغدو مواطناً كأى فرنسى آخر . وتلك حيلة قد ينخدع لها بعض من لا عقل له ، ولكنها لا تخدع الفرنسيين أنفسهم أو لا يصدقها الرجل الفرنسى العادى فى الأقل ، فكثيراً ما يخبرك مثل هذا الرجل متطوعا أن شعب الجزائر من جنس غير جنسه ، ودين غير دينه ، وهو لا يرضى فى قرارة نفسه ، أن يقف المستعبدون على قدم المساواة مع الأحرار . كذلك أرادت انجلترا أيضاً شيئاً من هذا القبيل مع مسلمى الهند

عندما ساعدت على نشر موجة الإلحاد بينهم لتصرفهم أولا عن دينهم ، لكى تستطيع القضاء فى يسر على كل مقاومة فى الأقطار الهندية .(١) وهكذا تفعل الدول الغربية جميعها عند ما توفد المبشرين لتمهيد الطريق أمام جيوشها وأساطيلها .

غير أن الأمة الإسلامية ، وإن كانت بلغت من الانحطاط غايته ، وأوشكت أن تبيد بسبب ظلم حكامها وأعوانهم ، فإنها كانت تحتفظ بجذوة كامنة تتمثل فى دينها الذى أتاحت له سلامة بنيته وبداهة عقائده وموافقته للطبيعة الإنسانية أن يصمد أمام كل غزو دينى أيا كان مصدره . فلما اشتد الضيق بالمسلمين ، وبلغت النفوس التراقى ، وسقطت جل البلاد الإسلامية فى يد الأجنبى أو صنائعه ، وقرب الخطر من القلب ، أى من جزيرة العرب والأماكن المقدسة ، تحركت الخواطر وانتفضت الأمة الإسلامية لتدفع عن كيانها ، فتجمّع الشمل ، وقامت جماعة من المسلمين المخلصين من مختلف الأقطار تثير الهمم ، وتدعو إلى الاتحاد والتكاتف والتعاون أمام هذا الخطر الأكبر ، فتجددت الروابط ، وتقاربت الأقطار المتباعدة والآراء المتنافرة ، فأيقظت أفكارَ العقلاء ، وحولت أفكارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ماهم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الخطأ وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوّة ، مؤملين أن تمهّد لهم الحوادث سبيلا حسناً ليسلكوه لحماية الدين والشرف . وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم ،

---

(١) انظر كتابنا جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ص ٥٠ — ٥٥ .

وإليها بسطوا أكفهم لا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم من الغيب من مثلها . . »(١)

وهكذا نشأت جمعية العروة الوثقى من هؤلاء العقلاء الذين حددوا هذا الهدف الجليل فى كثير من الأقطار الإسلامية ، وخصوصاً فى البلاد الهندية والمصرية ، وجعلوا يبحثون عن أسباب النجاح من كل وجه ، ويبذلون الجهد فى جمع كلمة المسلمين ، مضحين بأرواحهم . وكان على رأس هذه الجماعة جمال الدين الأفغانى الذى خصص حياته للدفاع عن الإسلام وأهله فى كل قطر من أقطارهم . فكان لإنشاء هذه الجمعية ومجلتها أثر كبير فى بعث الحماس ، وتوحيد القلوب ، وثورة الشعوب ضد حكامهم المستبدين وملوكهم الخائرين ؛ لكى يأمنوا ظهورهم فى أثناء صراعهم مع الدول المستعمرة . وامتد لهيب الثورات فى كل مكان فى مصر ، وفارس وغيرهما . وما برحت الأمم الإسلامية التى استيقظت من هجعتها الطويلة تسير على هدى هؤلاء الأحرار المصلحين ، لتنتزع بلادها بلداً بلداً من أيد الغاصبين ، فتحررت مصر والباكستان وإيران وسوريا ، وبدأت أفريقية الشمالية تجاهد بدورها لرفع يد الحكم الأجنبى عن عنقها . فاليقظة الإسلامية شاملة ما فى ذلك ريب ، ووسائل النجاح موفورة ، ولا يعدو الأمر أن يكون مسألة زمنية ؛ فسوف تسترد هذه الأمم حريتها فى المستقبل القريب أو البعيد . ولو كانت أكثر اتحاداً وتضامناً لاستطاعت أن تختصر كثيراً من المراحل والتضحيات . ولكن من يدرى فربما كان ذلك هو الطريق الطبيعى . فإن الأمة التى تفقد حريتها لمئات من السنين

---

(١) العروة الوثقى ص ٤١ .

لاتستطيع استردادها بين يوم وليلة ، كالمريض الذى ترهقه العلة ، فى سنين طوال ، فيعجز عن استرداد الصحة دفعة واحدة ؛ بل لابد له من فترة النقاهة والتدرج ؛ إذ كثيراً ما ينتكس المريض إذا حاول ما ليس فى طاقته ، أو سلك مسلك الأصحاء فى طعامهم وشرابهم .

ومن الأكيد أن الأمم الإسلامية قد استيقظت منذ الحركة الوهابية وزادت يقظتها إبتداء من أواخر القرن الماضى ، ولا ريب فى أنها يقظة حقيقية غير مفتعلة ، وفى أن تلك الأمم تشرف على أفاق جديدة . ومن الأكيد أيضاً أنها أخذت تشعر بقوتها الحقيقية ، وتعلم أن هذه القوة وليدة الاتحاد والوفاق ، وأن سبيل الخلاص إنما يكون بالعودة إلى الأخلاق الإسلامية التى انعكست معاييرها بسبب الاستبداد وازدهار طائفة من المشعوذين والمتجرين بالدين . وليس من ريب فى أن اليقظة كاملة ، وأن المحن التى اعترضت، أو قد تعترض، الأمم الإسلامية ليست من تلك المحن التى تعود بها إلى ما كانت عليه فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى . فقد احتملت الضيم إلى حد لا سبيل إلى الزيادة فيه مثقال خردلة . وهى تعلم أنها إذا أخطأت طريقها إلى استرداد حريتها مرة فلن تخطئه مرة أخرى ؛ إذ ستكون أكثر حذراً ، وأشد فطنة فى المرة التالية . ذلك أنه إذا طاح أو هوى زعيم من زعمائها فسيأتى من بعده زعيم آخر ، أصلب منه عودا ، وأطول باعا ، وأنفذ بصيرة ، وأكثر دهاء . وهى تعلم أنه ربما فشلت ثورة الأحرار مرة ، لكنها تنجح فى المرة التالية . وإن حوادث الشرق فى عشرات السنين الأخيرة لتشهد بأن الأمم الإسلامية تفيد من أخطائها ، وأن البذرة

التى غرسها زعماء الإصلاح الدينى والسياسى قد أنبتت أفضل الغرس وتبشر بأفضل الثمر .

ب — مجددون ورجعيون :

وقد لاحت معالم اليقظة فى مختلف الأقطار الإسلامية فى أوقات متقاربة ، فظهر بعض المصلحين فى الهند من أمثال أحمد خان ، ثم جاء جمال الدين الأفغانى فأيقظ الدول الإسلامية فبدأ بمصر والسودان ، وثنى بإيران ، وظل يحمل لواء الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية زهاء ربع قرن أو يزيد . وفى أثناء ذلك تتلمذ عليه أحرار مصر وتركيا ممن كان لهم شأن فى النهوض بالشرق فيما بعد . حقاً أدركه اليأس من أبناء ملته فى آخر حياته ، لكن الأفكار لا تموت . وما النهضة التى نراها الآن فى مختلف بلاد المسلمين إلا من غرس يديه . على أن هناك طائفة أخرى ساهمت بقدر ما فى هذه النهضة الشاملة ، وإن كانت تختلف عن جمال الدين وتلاميذه فى أنها لم تتخذ العودة إلى الدين أساساً ومحوراً لدعوتها ؛ بل كانت طبقة من الملحدين الذين تأثروا بإلحاد أوروبا ، وظنوا أن النهضة السياسية والاجتماعية تكفى فى تنبيه هذه الأمم المغلوبة على أمرها . ومع ذلك فإنها لم تعلن إلحادها ؛ بل كثيراً ما استخدمت الدين ستاراً لتحقيق أغراضها السياسية والقومية . كذلك نلحظ لدى بعض هؤلاء الدعاة والزعماء نفراً آخر ينادون بمبادىء تشبه مبادىء الماسونية شبيهاً عجيباً ، وتدعو إلى محاربة التعصب الدينى وإلى ضرورة الحياة النيابية على غرار ما فعل الماسونيون فى الغرب ، للقضاء على استبداد الأقلية التى تتحكم فى الشعوب باسم الحكم الملكى الوراثى أو باسم الدين .

هذا إلى أن حركة الإصلاح لم تجد الطريق معبداً أمامها ، وكان من الطبيعى أن تصطدم بقوة هائلة ، وهى قوة المحافظين على القديم ممن يرون فى تغيير الأوضاع خطراً على الدين أو على أنفسهم . ولم تكن قوة الرجعيين بالأمر الذى لا يؤبه به ؛ فإن للقديم سحره وجلاله وقدسيته ، وله أنصاره وأعوانه الذين ينافحون عنه إما عن علم ، وإما عن جهل . وربما كان أعوان القديم من الجهلاء أكثرهم حدّة فى الدفاع عنه ، وأشدهم حماساً فى محاربة الإصلاح والسخريه من زعمائه وقادته . فلقد لقى جمال الدين من جهلاء الأتراك أكثر مما لقى من علمائهم ؛ إذ انساقت العامة وراء شيخ الإسلام هناك ترميه بالإلحاد والزندقة ، وتطوع بعض الكتاب للطعن فى دينه على غير معرفة بحقيقة حاله . وإذا ساهم الجهلاء فى مقاومة المصلحين فعلوا شيئاً كثيراً ، فإن التيارات الاجتماعية والعاطفة الدينية العمياء تكتسح فى طريقها كل عاطفة أخرى كعاطفة الإنصاف أو الرحمة ؛ وفيها يفقد المرء العادى حرية تفكيره ، وينصاع لما يقوله الآخرون فيردّد مايرددون ؛ بل ليغلو فى ترديده دون بصيرة ، حتى ليظن أنه الحق نفسه . فإذا هدأت الأفكار الثائرة عاد كل من هؤلاء إلى نفسه ليرى أنه أفرط فى النقد وغلا فى اتهام الناس بالباطل . وقلّ أن يقابل الإصلاح بنفوس راضية ؛ بل إن من شأن العبقرية أو الزعامة أن يلقاها الناس بالسخط والحقد ، حتى إذا فرضت نفسها عليهم ، رضخوا لها ، وجعلوا يقولون إنها إنما جاءت تعبر عن أفكارهم وتترجم آمالهم .

كذلك لقى الإمام محمد عبده من عداء الخاصة والعامة أكثر مما لقى منهما أستاذه . فإن الخديوى عباس ركن إلى بعض الرؤساء الروحانيين ممن

لهم نفوذ عظيم فى نفوس العامة ، لكى يبثوا له العداوة بين الشيخ محمد عبده وبين رجال الأزهر ؛ بل يقال إنه ذهب إلى تحريض بعض أعضاء مجلس إدارة الأزهر على الاستقالة ، لكى يستعيض عنهم بآخرين يكونون أقدر على الوقوف فى طريق الإصلاح الذى كان محمد عبده ينادى بضرورة إدخاله على هذه الجامعة الإسلامية . ولم يكن شيوخ الأزهر ليغفروا له أنه جاء يحارب الجمود والتقليد ، ويحث على التجديد والاجتهاد . فظنوا أن خير سلاح يوجهونه إليه فيصميه هو أن يتهموه بالكفر ، وأن يشيعوا ذلك عنه ، حتى ينفر الناس منه جميعاً . وقد أفلحوا فى كيدهم إلى حد كبير ؛ وهنا يأتى دور الجهلة ، ومن لا خلاق لهم ممن يتجرون بالرأى العام عن طريق الصحف ؛ فانساق هؤلاء وهؤلاء ، من تلقاء أنفسهم أو بتحريض أعداء الشيخ محمد عبده ، للتشهير به ورميه بكل نقيصة ، وافتنت الصحف الهزلية فى التشنيع عليه حتى أصبح لا يطيق حياته ، دون أن يرجع عن آرائه أو تهن عزيمته ، وإن تركت هذه المقاومة العمياء آثارها العميقة فى نفسه وصحته .

لكن مثل هذه المقاومة ما كانت لتهن من عزم هؤلاء المصلحين الذين أدركوا بفطرتهم الثاقبة أن الزمن فى جانبهم ، وأن فلول الحقد والحسد والجهل سوف تولى الأدبار عما قريب ؛ ذلك أنهم فطنوا إلى ما لم يفطن إليه هؤلاء الذين تغمرهم الحياة السياسية من كل جانب ، فلا يتبينون منها شيئاً ـ نقول إنهم فطنوا إلى أن العالم الإسلامى قد بدأ يضطرب تحت وقع ضربات الغرب ، وأنه أخذ ينتفض منعوراً من سباته العميق ، يريد تحطيم أغلاله وقيوده واسترداد مكانته . كذلك أدركوا أن هذه الأمة ما زالت تصلح للبقاء ؛ إذ على الرغم مما حل بها من الكوارث فما زال فى أعماقها طبقة من الذين يتوقون إلى النهوض والدفاع عن النفس ، والذين لم يأت

الاستبداد السياسى والروحى على خير ما تنطوى عليه نفوسهم من العزم على الصمود للظلم والدجل ، ومن الرغبة فى استعادة ما فقدته أمتهم من مجد وشرف . وفى جملة القول حدس هؤلاء القادة حدسا صادقا أنه قد آن للشرق أن يقف على قدميه ، ويزيل الصعاب التى اعترضت تقدمه مئات السنين ، فى الوقت الذى استطاعت فيه دول أوروبا أن تخرج من ظلمات العصور الوسطى، وأن تتحرر من طغيان الحاكمين بأمرهم فيها .

أضف إلى ذلك أن احتكاك الشرق بالغرب لم يكن شراً كله ، بل كان فيه جانب من الخير ؛ فقد وقف المسلمون على حقيقة أذهلتهم ، وهى أن الحضارة الغربية أصبحت الحضارة العالمية ، وأن كل حضارة سواها لاتستطيع البقاء إلا إذا أخذت بالأسباب التى أدت إلى ازدهار حضارة الغرب ، من اعتماد على العلم والحرية السياسية ؛ كذلك علموا أن حضارتهم التى طالما زهوا بها ، والتى حسبوا أنها ما زالت تمثل الحضارة الإنسانية ، أصبحت لا تغنى عنهم شيئاً ، ولا سيما بعد أن تلوثت مصادرها الأولى بأوشاب وأخلاط مسختها حتى أصبح التعرف عليها يكاد يكون من أشق الأمور وأكثرها عناء ، وحتى أصبحت فى حالتها الراهنة لا تدفع عنهم شراً ولا تأتيهم بخير . ذلك أن العلم والفن أصبحا غربيين بعد أن ضاق الشرق بهما ، كما انتقلت القوة والغلبة معهما من جانب إلى آخر .

ونقول إن هؤلاء المصلحين لم يضيقوا بهذه المقاومة اليائسة التى بذلها الرجعيون للاحتفاظ بآخر معقل من معاقلهم ؛ ذلك أنهم علموا أن الشعوب الإسلامية ستدرك ـ أو أدركت بالفعل ـ أن القديم لا غناء فيه ما لم يطعم بالجديد ، وما لم تهذب أطرافه وحواشيه حتى يمكن التوفيق بينه وبين الجديد.

فكل محاولة يقوم بها أنصار الجمود والتقليد للوقوف فى تيار الحضارة الجديدة التى تقوم على أساس العلم ، ستلقى أسوأ مصير ؛ فإن الأمم لاتستطيع أن تعيش على القديم وحده ، وبخاصة إذا كان هذا القديم مليئاً بالأخطاء والأوهام والتقاليد التى لا تتفق فى كثير من الحالات مع الديانة الأولى . فالخير كل الخير للشرق أن يعترف أن الحياة لا توهب للضعفاء والجهلاء ، وأن محاربة العلم والحرية السياسية باسم الدين غدت أسطورة لا تخدع أحداً ، وأن هؤلاء الذين يقاومون الإصلاح ويحاربون أهله إنما يطعنون فى غير مطعن ، وينفقون جهودهم عبثاً ، وأنهم سيرجعون عن باطلهم ، طال بهم الزمان أم قصر ، وأنهم سيعلمون متى يجب أن ينقلبوا مع الريح ، لكى يكونوا أول الفائزين بثمرات جهاد الآخرين .

وهذا هو ما حدث بالفعل فإنا نرى بأعيننا أن أحفاد أو أبناء هؤلاء الذين حاربوا جمال الدين ومحمد عبده وأضرابهما يقبلون على دراسة العلوم الأوروبية التى كان أجدادهم أو آباؤهم يصرحون بأنها خطر على الدين . كذلك نرى أن الدين لم يفقد شيئاً سوى تلك الأوهام والآراء الميتة التى كانت وصمة عار فى جبين السمحة الغراء . فقد أخذت موجة التصوف الكاذب تنحسر ، وبدأ أوساط الناس ، وعامتهم يتجهون إلى الدين الحق من تلقاء أنفسهم ، دون أن يقودهم إليه علماء الدين الرسميون ؛ بل رأينا أكثر من ذلك ، وهو أن الإصلاح الدينى يسير بخطا حثيثة وأن آراء كبار المصلحين من أمثال جمال الدين ومحمد عبده تدرس جنباً إلى جنب مع آراء أرسطو وأفلاطون وكانت وديكارت فى المعاهد الدينية أيضاً . فلقد تحطمت حصون الرجعية أو فتحت فى الأقل أبوابها للعلوم الحديثة والفلسفة ، واضطرت

أن تقبل ما كانت ترفض من قبل ؛ لأنها ما زالت شديدة الحرص على الحياة ، ولا حياة فى عصرنا هذا لا للجامدين ولا للمتعصبين للجمود . ولو قام غلاة الرجعيين اليوم ينذرون الناس بخطر العلوم الحديثة على الدين لهز القوم أكتافهم سخرية ، ولو كانوا من أشد الناس عداء للعلم بالأمس .

فمن الأكيد أن روح الإصلاح قد سرت وتغلغلت فى نفوس كثير من أبناء الأقطار الإسلامية ، وأن مظاهر التطور بدأت تلوح فى مختلف مرافق الحياة ، وأن الشرق يشهد اليوم تفاعلا عجيباً بين عناصر القديم وعناصر الجديد ويعلم أن الغلبة ستكتب ، دون ريب ، لهؤلاء الذين يأخذون من الحضارة الغربية أحسن ما فيها ليوفقوا بينه وبين العناصر الإسلامية الأصيلة . ومن الطبيعى أن هذا التفاعل الكبير سوف يطهر العقائد من كثير من الشوائب والأوهام والآراء الفلسفية العتيقة التى ظنها مفكرو المسلمين فى عصورهم السابقة النتائج النهائية للحكمة والتفكير العقلى ؛ كذلك سوف يقضى على كثير من العادات الغريبة التى نمت ثم ازدهرت وتحجرت على الزمن، فى عصور التأخر والجمود . على أن هؤلاء الذين يريدون الاحتفاظ بكل شىء فى القديم ، ولو كان شراً ، ويبذلون قدر طاقتهم فى الوقوف أمام تيار الحضارة العلمية والاجتماعية الزاحفة فى بلاد الشرق يغفلون عن حقيقة كبرى ، وهى أننا إذا فرضنا جدلا أن أهل الجمود انتصروا ، وأنه أمكن الرجوع إلى الأفكار العتيقة التى سادت فى بلاد المسلمين فى أيام تدهورهم ، فإن ذلك لن يغنى عنهم شيئاً . حقاً سوف تعود البلاد الإسلامية إلى حالة من الانحطاط لا يتمناها إلا مريض العقل أو العاطفة . ولكن هل من الأكيد أن يرضى الناس جميعاً بهذا النكوص ؟ وهل من المعقول أن تقف دورة

الفلك ، فلا تتجدد نفس العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التى أدت إلى يقظة المسلمين فى القرنين الأخيرين . إن الزمن لا يعود إلى الوراء عادة ، وقد تتخلف بعض الأمم ، وتركد وتأسن حضارتها ؛ فإن بقى فيها صبابة من عزم وطموح لم تلبث أن تتحرك عجلة التطور ، وتتوالى طلائع الإصلاح حتى تنشط الهمم الخامدة ، وتدب الحياة فى أوصال هذه الأمة التى يحرص الرجعيون على الحياة على أشلائها . وإن سنن العمران التى تبعها الشرق فى يقظته توحى بأن الريح تهب فى جانب دعاة الإصلاح ، وأن المسلمين لن يعودوا إلى ركودهم عما قريب ، ولو كره أنصار القديم .

حـ ـ الوحدة الدينية والسياسية :

وقد استيقظ المسلمون حقاً ، وبدا النصر فى جانب دعاة الإصلاح ، عندما جاءهم رائد الإصلاح السياسى والدينى فى أواخر القرن التاسع عشر ينبئهم أنهم لن ينهضوا من عثرتهم ، ولن يحتفظوا بالقليل الذى بقى فى أيديهم ؛ ولن يستطيعوا استعادة قليل أو كثير مما فقدوه ، إلا إذا سار الإصلاح السياسى جنباً إلى جنب مع الإصلاح الدينى ، وإلا إذا اتحد المسلمون أولا ، وعادوا إلى دينهم الحق المجرد من عناصر الشرك ومن عقيدة التواكل ، ومن عادات التخاذل والشقاق. فالإصلاح السياسى رهن بالإصلاح الدينى ، وكلاهما فى الحق مكمل للآخر .

وليس هناك فى الحقيقة ما يدعو إلى اليأس . فإن المسلمين ما زالوا ، كما يقول الأفغانى : « يملأون الأقطار التى ورثوها عن آبائهم ، وعديدهم لا ينقص عن مائتى مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما أشربت قلوبهم من

عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد ازدراء بالحياة الدنيا ، وأقلهم مبالاة بزخرفها ؛ جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ؛ فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق ، وبذر فى نفوسهم بذور الفضائل . فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهناً ، وأشد استعداداً لنيل الكمالات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق . . . لا يرغبون بسلطة غيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت . ولما بينهم من الأخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه .»

وتلك هى العقلية الإسلامية التى أدت فى قديم الزمن إلى انتشار الدين الإسلامى انتشاراً لم يشهده أي دين آخر . ذلك أنه يتجه إلى الفطرة الإنسانية السليمة ، وهى تلك الفطرة التى ترى فى حرية العقل والضمير خير ضمان للعقيدة الحقة التى توجب على صاحبها ألا يذل ويخضع ويقر بالعبودية إلا لله وحده . وقد جاء الإسلام فى وقت تدهورت فيه الديانة المسيحية ، واتجهت نحو الشرك فى بيزنطة حيث انتشرت الأوهام والعقائد الوثنية والأساطير القديمة بفضل علماء الدين من اليونانيين ذوى العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فأصبحت المسيحية عبثـــاً وسخرية على حد قول لوثرب ستوداردد .[1]

أما الدين الجديد فقد نجح فى طبع العرب غلاظ القلوب بطابع الرحمة

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ص ٤ .

والتسامح والسعى إلى الخير ، فذهبت عنهم همجية الجاهلية وحدّتها ، وغدوا فاتحين رحماء لا يميلون إلى إراقة الدماء ، ولا يهدفون إلى تدمير حضارات الأمم التى دخلت تحت سلطانهم ؛ بل كان الأمر على عكس ذلك تماما ، فقد أخذ العرب ينهلون من موارد المعرفة ، وحملت الأمة الإسلامية أمانة العلم وأصبحت أكثر أمم الأرض حضارة وتقدما وعمراناً ، وكتبت الغلبة لثقافتها خمسة قرون أو أكثر ، وأخذت بيد العالم المسيحى فأخرجته من حلكة العصور الوسطى . فلما دب الضعف إلى العقائد وكثرت الفرق الدينية ، وسيطر أهل التعصب ممن تأثروا بالتقاليد المسيحية أو الهندية، على عقول العامة ، دب الوهن إلى هذه الأمة ثم طفقت تنحدر حتى قاربت الهاوية . ومع ذلك فإنها تستطيع أن تقف فى طريق الانحدار دفعة واحدة ، فتسترد أنفاسها ، وتسترجع مجدها الذى طالما بكت على ضياعه عبثا، لو أنها عادت إلى الأصول الدينية الأولى وإلى الأخلاق الإسلامية التى كانت منبعاً تفيض منه قوتها وحضارتها .

فالوحدة الدينية فى رأى جمال الدين هى الأساس الحق لكل نهضة سياسية ؛ بل هى منها بمثابة الروح من الجسد . ذلك أن القطيعة الدينية بين أبناء الأمة الإسلامية والخرافات التى دخلت على عقائدهم كانت أهم العوامل التى أدت إلى تفرق أجزاء هذه الأمة وتنافر ملوكها وأفرادها على نحو انتهى بتدهور الأقطار الإسلامية المتناحرة وإلى ضعفها جميعا ، ثم إلى سقوطها قطراً بعد آخر فى أيدى العدو، حتى أصبح المسلمون فى آخر العهد يحارب بعضهم بعضاً تحت أعلام دول أجنبية ، كما حدث فى الحروب العالمية الأخيرة . وقد أحس الأفغانى من قبل بتفكك هذه الأجزاء وتناثرها

وتقاطعها فأبى لنفسه أن ينتسب إلى جزء منها ؛ بل كان يرى أنه غريب لاوطن له ، لأنه لاوطن اليوم للمسلمين . فقد أصبحوا غرباء فى بلادهم ، وأذلاء فى أقطارهم ، يتحكم الأجنبى فى أرواحهم وأموالهم .

فلو أن المسلمين فطنوا إلى علة العلل ـ وقد فطنوا إليها بالفعل ـ لعلموا أنها تنحصر فى الاختلافات الدينية والخرافات التى مسخت عقائدهم ، واتجهت بهم إلى نوع صريح من الشرك ، يقوم فيه الأولياء أو القديسون مقام الآلهة فى ديانات الشعوب الوثنية كديانة الإغريق والرومان . ولو أنهم أرادوا لأمتهم حياة كريمة ـ وهذا هو ما يريدونه بالفعل إلا طبقة من الخونة والمرتزقة ـ لوجب عليهم أن يعودوا إلى دينهم الحق وإلى وحدتهم السياسية الأولى التى مزقتها الخلافات والمطامع والفتن . فالهدف الأول الذى يرى الأفغانى ضرورة تحقيقه ، حتى يكون النهوض بالمسلمين أمراً ممكناً ، هو أن يسعى هؤلاء لإقامة حكومة إسلامية كبرى ، تضم تحت جناحيها مختلف الولايات التى أصبحت عزلاء تنتظر سوء المصير ، إن لم يكن قد أدركها سوء المصير بالفعل .

غير أنه تبين أن تحقيق الخلافة الإسلامية فى العصر الحديث على غرار ما كانت عليه فى أيام أبى بكر وعمر بن الخطاب أمر يكاد يكون مستحيلا ؛ لذلك قنع بأن ينشىء المسلمون اتحاداً إسلاميا عاما شبيها بالنظم السياسية الحديثة لبعض الأمبراطوريات الكبرى فى عصره . فهو لا يدعو إذن إلى ملك واحد يسيطر على الممالك الإسلامية جميعها ؛ لأن ذلك أمر عسير بعد ظهور القوميات فى العصر الحديث . لكنه يرجو أن يكون القرآن دستور الجميع وسلطانهم ، وأن تصبح الوحدة الدينية هدفهم الأكبر ، بينما يبذل كل ملك من ملوكهم

غاية الجهد للدفاع عن أقرانه ، فإن حياته بحياتهم ، وبقاءه ببقائهم . وهذه الوحدة السياسية هى التى يتطلبها الدين ؛ فإنه يأمرهم أن يعتصموا بحبل الله الله جميعاً وألا يتفرقوا . فجمال الدين ليس عدواً للملكية فى ذاتها ، ولكنه عدو للاستبداد السياسى أيا كان لونه ؛ فإذا صلح حال ملوك المسلمين واتحدوا فليس هناك بأس من بقائهم . وهذا فى رأينا دليل على أنه لم يرتض مبادىء الماسونية ، ولم يعمل على نجاحها ، وأنه لم ينخرط فى سلك هذه الجماعة إلا ظناً منه أنها تنادى بالمبادىء الإنسانية الحقة من حرية وإخاء ومساواة .

فالوحدة السياسية — ولو كانت بين الملوك — ضرورة توجبها العوامل التاريخية التى تكتنف المسلمين فى عصرهم الراهن . لقد اشتد بهم قهر الدول المستعمرة ، فاستيقظت ضمائرهم وسرت فيهم حمية دينهم ، فليس لهم أن يتركوا مثل هذه الفرصة التى يوايتهم الزمان بها ، وليس لهم أن يقعدوا عن العمل الحثيث للوحدة الإسلامية ، فى ظل نظام الحكم الملكى السائد فى بلادهم ، ولن يغنيهم أن ينقطعوا للبكاء على المجد الغابر ؛ فإن البكاء — كما يقول الأفغانى — لا يحيى الميت والأسف لا يرد الغائب ، والحزن لا يدفع المصاب . كذلك ليس لهم أن يهنوا ويضعفوا فى محنتهم الراهنة ، ولا يرهبوا قوة العدو ؛ فإن الوجل يقرب الأجل واليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف . والحق أن اليأس والجبن ليسا من خلق المؤمن ؛ إذ لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يخاف الموت إلا من فقد ثقته بربه . فاليأس والجبن دليلان على الكفر : « لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة الله فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا للضيم . . . وإن من الحق أن نقول

إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم ، وما عليهم سوى أن يلجوها . . . وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى . . . إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم . وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكّن الجامعة الدينية بينهم» . (١)

٢ — طريق الثورات السياسية والاجتماعية

اتجاهات ثلاثة :

لقد أجمع المصلحون على ضرورة الإصلاح ، لكنهم اختلفوا فى تحديد طرقه ووسائله . فمنهم من دعا علانية إلى الثورة ضد الاستبداد السياسى والروحى ، واستخدام العنف للقضاء على تلك الفئة التى تقف فى سبيل النهضة الإسلامية . ومنهم من رأى أنه لابد من العودة إلى التعاليم والأخلاق الإسلامية حتى يلتئم الشمل ، وتمحى الفُرقة ، وعندئذ يكون النصر السياسى أمرا محققاً . ومنهم من رأى أن محاكاة أوروبا فى علومها وصناعاتها أسلم الطرق لرفع مستوى الحياة فى الأمم المستعبدة ؛ إذ أن الفقر والجهل حليفان للاستبداد ، وأن الثروة والعلم هما عدة العصر وذخيرته .

وقد جمع جمال الدين بين هذه الاتجاهات المختلفة . ذلك أنه كان باعث الثورات السياسية فى مصر وإيران وتركيا ؛ بل هو باعث الثورات التى شهدها الشرق الأوسط وشمال أفريقية فى السنوات الأخيرة أيضاً ؛ فإن هذه الثورات ليست فى الحقيقة إلا امتدادا لحركة الشعوب الإسلامية من أواخر القرن الماضى . وليس من الغلو فى شىء أن ننسب إلى الأفغانى هذه الآثار

(١) العروة الوثقى ص ١٨٣

كلها فقد كان لشدة ذكائه وحدة عاطفته أكبر الأثر فى تحريك الهمم وإثارة النفوس لعدة أجيال ، شأن العباقرة الذين لاتموت آراؤهم بموتهم ؛ بل تتحقق عادة بعد أن يدركهم اليأس من تحقيقها . أما فى مرحلة اليأس من إصلاح حال المسلمين لجمودهم وفتورهم فقد كان الأفغانى شعلة لا تخبو جذوتها ، وثورة لا تهدأ حركتها : أينما ذهب تأججت النفوس ، وقام أشباه الموتى من مضاجعهم يطالبون بالحرية ، وينادون بموت الخونة ، وطرد المستعمرين الذين حسبوا أنفسهم سادة أمم منحلة . أما بعد موته فقد انقلب اليأس أملاً ، والجمود والانحلال تجديداً وحيوية ، وزادت الثورة عنفاً ، والنفوس اضطرابا .

فجمال الدين الأفغانى رسول النهضة السياسية فى الشرق ، وهو رائد التجديد الإسلامى . لقد ثار على أهل الجمود من العلماء فقاوموه مااستطاعوا . ودعا إلى تحرير الدين من الأوهام والأباطيل ، وحاول صرف الناس عن عقيدة التواكل التى ما تطرقت إلى أمة إلا كانت نذير فنائها . وكان اتجاهه الدينى هم أهم ما ورثه عنه تلميذه الشيخ محمد عبده . وربما كانت طبيعة التلميذ لا تتسع لأكثر من هذا الاتجاه . ومع ذلك فإنه لم يكن أقل خطراً من الاتجاه السياسى الذى ارتضاه آخرون كعبد الرحمن الكواكبي ، وطبقه بالفعل مصطفى كامل وسعد زغلول فى مصر ، وجمعية تركيا الفتاة فى دار الخلافة .

أما الاتجاه العلمى فكان شديد الوضوح عند جمال الدين الأفغانى على الرغم مما قد يزعمه زاعم يريد الانتقاص من قدر هذا المصلح أو يريد أن يصوره للعامة فى مظهر عالم الدين الرجعى الذى يحارب الحضارة الأوروبية

والعلم الحديث . ونقول ربما هو جم جمال الدين من هذه الناحية ؛ فإن بعض الناس يخلط بين موقفه من الآراء الإلحادية الأوروبية التى أخذت تنتشر بين المسلمين وبين موقفه من العلوم والفنون التى كان يعلم حق العلم أنها سبب نهضة الغرب ، والتى كان ينادى بضرورة اقتباس الشرق لها إذا أراد التحرر من إساره ثم اللحاق بأهل أوروبا . وسنفصل هذه الفكرة فى موضعها .

ولم يكن بد من أن يوجد رجل فى مثل ذكاء الأفغانى وعبقريته لكى يستطيع التأليف بين هذه الاتجاهات الثلاثة التى يحسب بعض المصلحين من الدرجة الثانية أو الثالثة استحالة التوفيق بينها . لكن جمال الدين كان أطول باعا، وأصلب عوداً ، وأجود استعداداً ، وأشد حمية ممن تتلمذوا عليه . لقد أراد محاربة الاستبداد السياسى والجمود الدينى والتدهور العقلى فى آن واحد ، وقد فعل . ولو أنه وجد من الأتباع من ينهض بحمل العبء معه فلربما لم تتطلب النهضة الإسلامية هذه السنين الطوال لكى تصبح فى وقتنا هذا حقيقة ملموسة فى مختلف الاتجاهات ؛ إذ بدأت الأقطار الإسلامية تتحرر من استبداد الملوك ومن عنت المستعمرين منذ أوائل القرن الحالى ، وأخذ علماء الدين الرسميون يفسحون المجال أمام نفر من العلماء الدينيين المجددين الذين يرون أن لا عزة لدينهم مع هوان وضعة معتنقيه ، والذين يقودون حركة الجماهير الثائرة فى بعض الأقطار الإسلامية ضد المستعمرين ، بدلا من أن يسعوا إلى التحالف معهم أو طلب العون والرزق لديهم ، على نحو ما كان يفعل بعض الشيوخ ورؤساء الطرق الصوفية منذ عهد ليس بالبعيد . كذلك جعل الشباب يتجه إلى الدراسات العملية المثمرة من طب وهندسة وعلوم وزراعة وملاحة ، بدلا من تلك الدراسات النظرية

التى لا تكفى وحدها فى إعداد جيل قادر على الصراع لكسب القوت فى هذه الحياة التى يكتب الفوز فيها للعمل ، لا للقول والجدل ، أو الآراء الفلسفية الإلحادية التى ربما تجد صدى فى نفوس العاجزين ممن لا يطيقون الكفاح من أجل البقاء ، فيظهرون سخطهم بالتجرؤ على مقام الإلوهية الذى خذلتهم بعد أن خذلوا أنفسهم .

٣ — الإصلاح السياسى

١ — مثال من الغرب :

ترجع نهضة أوروبا الحديثة إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، أى إلى العصر الذى غابت فيه شمس المسلمين فى بلاد الأندلس . فإن سقوط هذه البلاد فى يد الفرنجة كان بدءاً لعصر الكشوف الجغرافية الكبرى ثم الاستعمار . وفى أول الأمر اتجهت أنظار الأوروبيين نحو الغرب بعد كشفهم عن أمريكا عفوا ، وهكذا وضعوا أيديهم على قارتين جديدتين . ومنذ ذلك الحين كان من المستطاع أن يتنبأ المتنبئون بأن ساعة الغرب قد دقت ، وأن شمس الشرق قد غربت ، وأن أوروبا سوف تسيطر على مصير الحضارة الإنسانية .

غير أن ذلك كله كان فى حجب الغيب ، وكان أهل القارة الأوروبية فى شغل شاغل بالفتح والكشف من جانب ، وبالتحرر من سيطرة الملوك ورجال الكهنوت من جانب آخر . ولم يكتب النصر لهذه الشعوب على ملوكها ورؤسائها الروحانيين إلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما قام

الفرنسيون بثورتهم الكبرى التى غيرت معالم أوروبا ، وهزت عروش ملوكها ؛ فلم تنقض عدة أجيال حتى اختفت الملكية الاستبدادية دون رجعة ، وقنع رجال الدين بأن يحيوا حياتهم الخاصة ، وأن يتركوا ما لقيصر لقيصر ؛ أى أنهم رضوا أن يشغلوا أنفسهم بالدين وحده .

ولم يكن التحرر من الطغيان السياسي والدينى إلا نتيجة لجهود جماعة من المفكرين الأحرار ، أو الملحدين كما يسميهم رجال الكهنوت فى أوروبا ، ونريدهم طائفة البنائين الأحرار أو الماسونية . فقد ظهرت هذه الطائفة هناك فى الربع الأول من القرن السادس عشر ، أى فى العصر الذى نادى فيه لوثر وكالفن بضرورة الإصلاح الدينى . وكان أهم دعاتها فى إيطاليا أفراد عائلة تسمى « سوزينى » . وقد أراد هؤلاء أن يذهبوا فى الثورة على الكنيسة الكاثوليكية إلى حد أبعد مما ذهب إليه كالفن ولوثر . وكانت الفكرة الأساسية للماسونية الأوروبية هى القضاء على مبدأ الأسرار فى المسيحية ، وتأويل كل ما لا يقبله العقل منها إلى درجة أنهم أفزعوا البروتستانت أنفسهم . فمن العقائد التى أنكروها عقيدة التثليث وعقيدة الخطيئة الأولى ، وتجسد الله سبحانه فى شخص المسيح . ثم انتشرت الماسونية من إيطاليا إلى كثير من الأمم الغربية كبولنيا وانجلترا وهولندا وفرنسا وبلاد المجر وروسيا .

وإلى هذه الطائفة يرجع الفضل فى هدم الملكية وتدمير سلطان الكنيسة . ومن المحقق أن « فولتير » و « ديدرو » وغيرهما ، ممن مهدوا لقيام الثورة الفرنسية ، كانوا من أتباع الماسونية . كذلك من الأكيد أن الديانة الطبيعية [Déisme] التى نادى بها فولتير ، وأراد الاستعاضة بها عن المسيحية ، ليست إلا صورة من الفلسفة الماسونية التى تقوم على فكرة

الاعتراف بإله واحد ، يطلقون عليه اسم مهندس الكون الأكبر ؛ وتعتمد على أسس المعرفة العقلية التى يتخذون الهندسة والرياضة نموذجاً لها. أما فى عهد الجمهورية الفرنسية الأولى التى تلت سقوط الملكية فقد استولى الماسونيون على السلطة الحقيقية ، ذلك أن عدداً كبيراً من ممثلى الأمة كانوا من أفرادها ، ومعهم بعض القسس الذين خرجوا على تعاليم الكنيسة . هذا إلى أن نابليون نفسه انتسب إلى الماسونية عند مروره بجزيرة مالطة ، فى طريقه إلى مصر . وهذا يفسر لنا سبب اضطهاده للبابا فى عصره . كذلك كان نابليون الثالث ماسونياً هو الآخر .

ب ـ ضرورة الثورة على الاستبداد :

وهذه الطائفة هى التى يشير إليها عبد الرحمن الكواكبى ، دون أن يذكر اسمها ، فهو يقول ، عند حديثه عن سبب نهضة أوروبا ، إن حكماء أوروبا المتأخرين قد حرروا الناس من الملكية والكنيسة عن طريق العلم . ثم إنه يبدو أكثر تحديداً عندما يقول : « وقد سبق هؤلاء فئة اتبعت أثر النبيين ، ولم تحفل بطول الطريق ، وقد نجحت ورسخت ، أعنى بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسى جمهورية الفرنسيس ، بل رتقوا فتوق الدهر فى دينهم وهذّبوا وسهلّوا ، وقرّبوا حتى جدّدوه وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاقهم . »[1] فإذا علمنا أن الماسونية هى التى وضعت أسسس الجمهورية الفرنسية وأن « روبسبيير » وغيره كانوا من الماسون لم يبق لدينا شك فى حقيقة هؤلاء الذين يومىء

(١) طبائع الاستبداد ص ٧٥ .

إليهم الكواكبي. وإذا علمنا من جانب آخر أن الماسون ينكرون ألوهية المسيح، وينادون بالإخاء والحرية والمساواة ، وهي مبادىء دينية يمكن أن تنسب إلى المسيحية أو إلى الإسلام على حد سواء ، زاد يقيناً أن هذه الطائفة التي يلمح إليها الكواكبي والتي حررت أهل أوروبا كانت طائفة الماسون .

هذا إلى أن الكواكبي ينادي صراحة بأن الشرقيين ، على اختلاف مللهم من مسلمين ومسيحيين وإسرائيلين في أشد الحاجة إلى مثل هؤلاء الحكماء الذين لا يكترثون « بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء والرؤساء الفساق الجهلاء » حتى يستطيعوا النظر في الدين وتجديده وتطهيره من الزوائد والحواشي الباطلة التي تطرأ عادة على كل دين تقادم عهده ، مما يحتم ظهور بعض المجددين المصلحين الذين يرجعون الدين إلى أصله عن طريق العلم والمعرفة . وتلك فكرة قريبة من آراء الماسونية أنفسهم .

غير أنه لا يدور بخلدنا بعد هذا كله أن نقول إن عبد الرحمن الكواكبي كان ماسونيا ، فإنه كان أقرب ما يكون إلى المذهب الوهابي . ولا يكفي أن تتحد المبادىء بحسب الظاهر ، إذا كانت تختلف بحسب الواقع أو من جهة التطبيق ، أي أن الكواكبي إذا ارتضى مثل هذه المبادىء فليس من الضروري أن يكون ماسونياً ؛ فإن كل مسلم عاقل مجدّد يستطيع أن يقول قوله دون أن يكون ماسونيا . هذا إلى أننا بيّنا أن الماسونية في الشرق لم تبلغ قط مبلغها في الغرب ، وأن السبب في ذلك يرجع إلى أن المسلمين ينكرون ألوهية المسيح ، كما أن دينهم لا يعترف مطلقاً بوجود طبقة من رجال الكهنوت الذين يفرضون فهمهم للدين على بقية الأمة ؛ لأن الدين الإسلامي هو الدين الذي يرفض الواسطة بين الله وعباده ، أيّا كانت طبيعتها . فإذا جاء

الكواكبى أوجمال الدين وغيرهما ينكرون على علماء الدين الأدعياء سلطانهم لم يكن ذلك مروقا أو خروجا على الدين أو انتساباً حقيقياً إلى الماسونية .

ويبدو لنا ، فيماعدا ذلك ، أنه ، وإن كان قد اطلع على مبادىء الماسونية الغربية ، فإنه لايرتضيها ، وبخاصة إذا كانت ماسونية ملحدة . فهو يلح دائما أن نهضة الشرق بثورته على الحكم الملكى الاستبدادى وحلفائه لن تقوم إلا على اساس دينى . وهو يأخذ على الشرقيين أنهم لا يتبعون دينهم الذى يدعوهم إلى التحرر من الظلم والذل ، والذى لا يجيز العبودية ، إلا فى حالة واحدة ، أى عندما تكون لله وحده . فالمسلمون فى رأيه لا يحبون الموت ؛ بل يحرصون على الحياة ، لكنهم لايعرفون طريق الحياة الكريمة . ولوعلموا سبيلها الحق ، لعرفوا أن الهرب من الموت موت ، وطلب الحياة حياة . غير أنه إذا دعا المسلمين إلى التمسك بدينهم فإنه ينهاهم عن التعصب الممقوت ؛ فإن مصيبة الشرق واحدة ، وهى نكبته باستبداد الأمراء ، وخضوعهم لتوجيهات الغرب . وإذن فليتحد المسلمون والنصارى فى جهادهم من أجل الحرية ، وليتجه كل منهم إلى دينه ، فإن الدين لله وحده ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . (١)

فالطريق إلى الإصلاح واضحة عنده ، وهى الثورة على الحكم الفردى . غير أنه يجب الحذر ، ولا سيما إذا كان أعوان الملك المستبد وجنوده من غير أبناء الوطن . ولعل الكواكبى يشير إلى فشل الثورة العرابية بسبب عدم تجانس القوات الحربية ، ولوجود عنصر الشراكسة الذين كانوا يرون

---

(١) المصدر السابق صفحة ١٠٤ .

فى نجاح عرابى قضاء على نفوذهم . أما إذا كان المستبد قوياً بجنوده وأنصاره من الأجانب ، فقد وجب التريث ، وإعداد العدة ؛ لأن الثورة من غير استعداد وتعبئة كاملة ليست إلا فتنة تُحصد فيها أرواح الناس حصداً . ومع هذا قد يبلغ الاستبداد غايته ، فلا يجدى النصح شيئاً ، وعندئذ تنفجر الثورة انفجارا طبيعياً . فإذا نجحت ، على الرغم من وجود هذه العقبات جميعها ، وجب على القائمين بها أن يبدأوا بالقضاء على المنافقين ، حتى يأمنوا ظهورهم ، وحتى لا يكون نفاق هؤلاء سبباً فى ضياع جهودهم .

وهناك ظروف مواتية يجب أن تترقبها الشعوب الشرقية للخلاص من مستعبديها ، وهى إن فاتتهم مرة فقد لا يضن بها الدهر مراراً أخرى . فمنها أن يخرج المستبد مغلوباً على أمره من حرب قاده إليها غروره وقصر نظره ، دون أن يستطيع إلصاق الهزيمة ببعض القواد . ومنها أن يجرؤ المستبد على خدش العواطف الدينية مما يثير حفيظة الشعب وحنقه . ومنها أن تحدث أزمة اقتصادية تعجز الطبقة المتوسطة عن احتمالها ؛ أو يظهر المستبد مودته وثقته لمن تجده الأمة عدواً لشرفها أو دينها وتقاليدها .

وقد تجتمع هذه الأسباب كلها فى أمة من الأمم الشرقية . وفى هذه الحال يكون نجاح الثورة أمراً محققا ، وبخاصة إذا قادها جماعة أفادوا من أخطاء سالفيهم من الأحرار . لكن النجاح الأول وحده ليس إلا مقدمة لكثير من المشاكل التى تعترض الأمة التى تخرج من الظلام فجأة إلى نور يكاد يعشى بصرها ، أو يذهب به . ومهارة القادة تتجلى حينئذ فى دفع هذه الأمة الحائرة نحو مصيرها فى غير هوادة أو رفق ؛ لأن التردد فى تحقيق نتائج هذا النصر يذهب بروعته

ويوشك أن يثير رغبة الغدر والنكوص لدى ضعاف القلوب أو أصحاب المنافع الخاصة .

كذلك لايكفى أن تنجح ثورة من الثورات فى القضاء على القديم ومساوئه وأعوانه الذين لا تخلو منهم أمة من الأمم ؛ بل يجب أن تحدّد أهدافها منذ البدء تحديداً واضحا ومفصلا . ذلك أن الأهداف الغامضة تفضى عادة إلى انقسام القائمين بأمر الثورة . وإذا حدث أن انقسم هؤلاء فيما بينهم فإن رؤوس الخونة تطل من مخابئها تنفث السم فى نفوس الأمة ، وتحاول أن تفيد من هذا الخلاف . وكلما زاد الخلاف حدة أصبح الخونة أكبر أملا فى إثارة الفتنة ، وأطول باعا فى اختراع الأكاذيب لتهييج نفوس السذج ، سواء أكانوا من الخاصة أم من العامة ، وكلما اشتد ساعد الخيانة رجحت عوامل الشر فى هذا المجتمع الذى لم يسترد بعد حالته الطبيعية من إثر الهزة الكبرى التى قلبت فيه الأوضاع رأسا على عقب . أما إذا عظم الخلاف ففرقّ بين القائمين بأمر الثورة دون رجعة فما لاريب فيه أن أنصار النظام القديم لن يترددوا فى إثارة الفتن الداخلية التى ربما كانت أشد خطراً على كيان الأمة من طغيان المستبدين وجبروتهم .

فمن الواجب إذن أن يُحكم الثائرون خطواتهم ، وأن يجيدوا تحديد برامجهم ، وأن يشركوا الشعب كله فى الحماس معهم لتحقيق هذه الأهداف ، وأن يشعروه دائما أنه مسئول عن مصيره ، وأن يجعلوه يعمل ويشعر أنه يعمل حقيقة ؛ إذ ليس أفتك بحيوية الشعوب من البطالة والفراغ . وهذا هو السبب فى نجاح الثورات الكبرى كالثورة الفرنسية فى مطلع القرن الماضى ؛ فإنها كانت ثورة شعب بأسره . وقد استطاع قادتها أن يشغلوا هذا الشعب

وأن يشعروه بأنه هو الذى سينشر مبادىء الحرية والمساواة والإخاء بين بقية الشعوب الأوروبية بعد أن تتخلص مثله من الاستبداد السياسى والروحى.

تلك هى آراء الكواكبى فى ضرورة الثورات السياسية فى الشرق للخلاص من الطغيان أيا كان نوعه. غير أنه لا يذهب مطلقاً إلى تحريض الشرقيين على رجال الدين دون تفرقة. ذلك لأنه يفرّق بين نوعين من العلماء الدينيين. فهناك فريق العلماء المنافقين الذين يرى هو أن أفضل الجهاد فى هذا الزمن هو الحط من أقدارهم عند العامة. وهناك فريق العلماء العاملين الذين يجب احترامهم والاعتراف بفضلهم وحسن فهمهم للدين؛ لأنهم لا يتخذونه وسيلة من وسائل الكسب أو الرزق؛ بل يؤمنون به عن يقين، ويلتزمون مبادىء الإسلام وأهمها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فإن الملوك والأمراء إذا رأوا احترام الناس لهم وسخريتهم من العلماء الأدعياء أقبلوا عليهم أيضاً رغم أنوفهم، وأذعنوا لنصحهم طوعاً أو كرهاً.

وإنا لنجد مثلا لذلك فى أيامنا هذه عند كثير من علماء المغرب. فإن هؤلاء رغبوا عن أن يكونوا أداة فى يد الملوك أو الأمراء من حلفاء المستعمر، وذلك لأنهم احتفظوا لأنفسهم بكرامة العلماء من أهل الحل والعقد، وفرضوا أنفسهم على قومهم بالفضل والعلم. فأصبحوا أصحاب الحق فى اختيار السلطان أو عزله إن أخطأ أو حاد عن سبيل الحق. وهم الذين يدعون الناس إلى الجهاد إذا قهرهم الأجنبى المستعمر على قبول حاكم دينى لا يرتضونه؛ وهم الذين نصروا أمتهم فى المطالبة بعودة سلطانهم الذى يعقدون عليه آمالهم فى الإصلاح وفى الظفر بالحرية.

ويرى الكواكبى أن من واجب هؤلاء العلماء الذين يربأون بأنفسهم

عن أن يحنوا رقابهم للملوك المستبدين أن يلجأوا إلى خير السبل وأيسرها لتثقيف العلماء من الطبقة التى تليهم ، وأن يحاولوا رفعهم إلى مكانتهم فى العلم والخلق ، ليكونوا من بعدهم رؤساء الأمة ووكلاءها ، أى أهل الحل والعقد فيها . وذلك لأن ضعف أو قوة الأمة الإسلامية راجع إلى ضعف أو قوة احتساب أهل العقد والحل واشتراكهم فى تدبير الأمة . فإن استبداد الملوك بمصائر هذه الأمة كان سبب البلاء الأكبر الذى حاق بها ؛ فى حين أن حكم الشورى كان سبباً فى قوتها ومجدها . وهكذا عند التدقيق فى كل فرع من الدول الإسلامية الماضية والحاضرة ؛ بل فى ترجمة كل فرد من الملوك والأمراء ؛ بل فى حالة كل عائلة أو كل إنسان فرد نجد الصلاح والفساد دائرين مع سنة الاستشارة والاستقلال فى الرأى . »[1]

ويعتقد الكواكبى أن المسلمين لو نجحوا فى ثورتهم على الاستبداد واستطاعوا الرجوع إلى حكم الشورى لما كان لهم أن يقنطوا من اللحاق بالأمم الغربية التى سبقتهم إلى الأخذ بأساليب الحكم النيابى . ذلك أن الضعف الذى يقعدهم عن النهوض يمكن أن يزول . فكم من أمة حل بها التدهور ، ثم استردت حضارتها وكيانها كالرومان واليونان وغيرهما من الأمم . ثم تأخذ الكواكبى نشوة من الأمل ، فيرى أن الفارق بين الأمة الإسلامية وبين الأمم الحية المعاصرة لا يعدو أن يكون فارقاً فى العلم والأخلاق العالية . وهو فى رأيه فارق هيّن يمكن القضاء عليه ؛ لأن مدة تحصيل العلم لا تزيد عن عشرين سنة ، ومدة تطهير الأخلاق أو السمو بها لا تتطلب أكثر من أربعين عاماً . ونود أن لو كان صادقاً فى نبوءته ؛ وإن بدا لنا أنه

---

(١) أم القرى ص ٥٣ .

ربما كان شديد التفاؤل . ومع ذلك فإننا نعترف له أنه اهتدى إلى أهم نقط الضعف لدى المسلمين ؛ لأنه عرف أن الحرية لا تمنح عفواً ، وإنما تؤخذ عنوة ، ثم إنه لا يمكن الاحتفاظ بها فى أمة تجمع بين الجهل وسوء الخلق .

٤ — النهضة عن طريق العلم

(١) العلم والدين :

لقد أجمع المصلحون منذ أواخر القرن الماضى على أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالعلم ، ولا يريدون به هذا العلم المتحجر الذى عرفوه فى كتب المتأخرين من الفقهاء وأهل الجدل ، ذلك العلم الذى مازال يطبع عقول ملايين من أبناء المسلمين بطابع الجمود وضيق الأفق الذى تتميز به عقلية القرون الوسطى ، وإنما يريدون به العلم الحديث ، أى العلم الأوروبى الذى يعتمد على كشف القوانين وتسخير الظواهر الطبيعية ؛ ذلك أن هذا العلم هو الذى يحرّر العقول من الأوهام والأباطيل ، وهو الذى يستطيع أن يجدّد حيوية الشعوب الإسلامية ، وأن يعين أبناءها على الاقتراب من مصادرهم الأولى التى استغلقت على أفهامهم ، مع أنها أكثر وضوحا وبداهة ، مما اخترعه ذوو اللجج من علمائهم السابقين . وقد ضربنا أمثلة من كتب الفقه تبين لنا كيف تناسى الفقهاء آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، فأوغلوا فى تعنتهم ولججهم حتى كرّهوا الناس فى دينهم ، وجعلوهم يحسبونه أغلالا وقيودا .

ونقول : إن المصلحين أجمعوا على ضرورة الاستعانة بالعلم الحديث ؛ لأنهم رأوا أن تقدم أهل أوروبا ، إنما يرجع إلى تحررهم من عقلية العصور الوسطى ، ومن رجال الكهنوت الذين زعموا أنهم قادة الفكر وحملة العلم

الدنيوى والأخروى . لذلك نرى أمثال أحمدخان فى بلاد الهند يقرّر فى صرامة أن المسلمين لن ينهضوا إلا إذا أخذوا عن أوروبا علومها ومدنيتها ؛ ذلك لأن العلم لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ؛ بل إنهم فقدوا ذلك أو كادوا يفقدونه بسبب جهلهم . ومن ثم يجب عليهم أن يشاركوا الأمم الأوروبية فى معارفها ، وأن يزاحموها ما استطاعوا فى كل فروع العلم والفن . كذلك رأى محمد عبده فى مصر أنه لا أمل فى نهضة المسلمين فى مصر إلا بإصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة وتطهير الدين من الخرافات التى تفيض بها تلك الكتب التى ينظر إليها بعض المشتغلين بدراسة الدين نظرة التقديس التى لاتقوم على الفهم ، بقدر ماتقوم على الجهل والرغبة عن تكوين رأى شخصى.

لكننا سنشير بصفة خاصة إلى موقف أكبر هؤلاء المصلحين ، ونريد به جمال الدين الأفغانى ، فقد قيل عنه إنه كان عدواً للحضارة الأوروبية (١) ، وإنه وقف فى سبيلها حتى لا تنفذ إلى بلاد المسلمين . وربما احتج هؤلاء بموقفه من أحمد خان فى الهند ، ومن آراء الفلاسفة الماديين فى رسالته للرد على الدهريين (٢) ، أو ربما احتجوا بنقده لجماعة ممن بهرتهم مظاهر الحضارة الأوروبية وقشورها ، أو ربما لم يحتجوا بشىء من هذا كله أو من غيره ، لكنهم أرادوا — لسبب لانود البحث عنه — أن ينسبوا إلى الأفغانى رأيا لم يكن من آرائه فى حقيقة الأمر . ونقول إننا لانود البحث عن العوامل التى قد تدعوهم إلى تجريح هذا الرجل ؛ لأن هناك ما هو أجدى فى نظرنا من الاستطراد فى هذه المسألة ، ونريد بذلك الأهمّ الأجدى أن

---

(١) أنظر صفحة ١٧٦ .

(٢) أنظر كتابنا جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

جمال الدين عرف للعلم الحديث قيمته ، وأنه لاينكر ان تقدم أوروبا يعتمد على أساس من العلم الصحيح ؛ بل إنه ليأخذ على المسلمين ، وعلى علماء الدين منهم خاصة ، أنهم يقفون من العلم موقف العداء ، بحجة المحافظة على العقيدة وعلى التقاليد . ذلك أنه لا يجهل أن هذا الدين يدعو إلى العلم ، وأن القرآن يعجب لهؤلاء الذين يسوّون بين الذين يعلمون والذين لايعلمون .

وكيف يجهل الأفغانى موقف الإسلام من العلم ، وهو الذى لايفتأ يردد فى كل مناسبة أن الإسلام ليس عدّوا للعقل أو مناهضا له ، وأنه يمتاز عن غيره من الأديان بدعوة الناس إلى البحث النظرى والبرهنة على عقائدهم ، والسعى فى تحصيل العلم ولو كان فى أقصى أطراف الأرض ؟ فهل لأحد أن يزعم ، بعد ذلك ، أن الأفغانى كان رجعيا مقلداً ، وأنه وقف فى طريق نشر الثقافة الغربية فى الشرق؟ حقا لقد دحض بعض الآراء الفلسفية الإلحادية ونعنى بها نظرية الماديين ، أو أصحاب المذهب الوضعى ، وهو ذلك المذهب العلمى المزعوم الذى ساد فى أوروبا فى أواخر القرن الماضى ؛ لكننا نعلم الآن أن كل الآراء الفلسفية الإلحادية التى حيكت حول نظرية « داروين » هى أبعد عناصر هذه النظرية عن طبيعة العلم باعتراف المشتغلين بالفلسفة فى وقتنا الحاضر . كذلك نعلم أن العلماء فى هذا العصر قد رجعوا عن المذهب الوضعى الذى زعم أن العلم قد أدرك غايته ، فاعترفوا أن آفاق العلم ما زالت أكثر امتداداً واتساعاً مما خيل لبعض الفلاسفة كأوجست كونت وأتباعه ؛ ممن كانوا يرون أن العلم كشف عن جميع القوانين الممكنة، وأنه يستطيع أن يحل محل الدين فى وضع أسس الأخلاق دون حاجة إلى العقائد الدينية ، كالإيمان بوجود الله وخلود النفس . فإذا كانت هذه

الآراء الإلحادية ، أو الفكرة المفرطة عن قيمة العلم ، هى التى حاربها جمال الدين فإنا لنعجب لأمر هؤلاء الذى يرمونه بأنه كان عدواً للعلم ؛ إذ كان أولى بهم أن يعترفوا بأنه كان صادق النظرة ، وأنه سبق علماء عصرنا فى هتك ستار هذه الآراء الفلسفية الخاطئة ؟

هذا إلى أن الأفغانى يأخذ على المسلمين أنهم لا يقتبسون من الحضارة الأوروبية سوى مثل هذه الآراء الفلسفية الواهية ، ولا يرتضون منها غير كل تافه لا خطر له ؛ بل هم أسرع الناس إلى اختيار كل شىء يزيدهم انحلالا وتدهوراً ، ثم يغفلون عن العلوم الحقيقية كعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والميكانيكا ، وغيرها من العلوم التطبيقية أو الفنون التى لا غنى عنها فى تسخير قوى الطبيعة ، وكسب أسباب القوة الحربية . ولو أنهم فهموا دينهم حق الفهم لعلموا أن تحصيل مثل هذه العلوم واجب دينى ، قبل أن يكون واجباً اجتماعياً ؛ لأن الإسلام يدعو أهله إلى أن يكونوا أقوياء ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا عن طريق العلم . فمن العبث إذن أن يقال إن جمال الدين كان عدواً للعلوم الحديثة ؛ إذ كيف ينادى مصلح من طبقته إلى العودة إلى الدين الصحيح ثم يعلنها حرباً عواناً على العلم الذى يدعو إليه هذا الدين ؟ حقاً إن من يحارب العلم رجل يجهل حقيقة الإسلام وحقيقة العلم . وما نظن أن الأفغانى قد بلغ هذا الحد من الغفلة التى ربما نسبها إليه من لا علم له بآرائه الحقيقية !

ب ـ موقف المسلمين واليابانيين من العلم الأوروبى :

فإذا بقى بعد ذلك ريب فى نفوس من يصفون جمال الدين بأنه كان عدواً

للعلم ، فمن اليسير أن يلتمسوا رأيه فى المقارنة بين موقف المسلمين واليابانيين من حضارة الغرب . فقد فتن الأولون ـ كما قلنا ـ بالمظاهر التافهة لهذه الحضارة ، كما شغلوا عقولهم بالآراء الإلحادية ؛ بينما احتفظ الآخرون بعقائدهم الوثنية ، ووقفوا فى طريق التبشير بالدين المسيحى ، واحتفظوا بتقاليدهم العتيقة ، لكنهم حرصوا كل الحرص على تقليد الأوروبيين تقليداً صحيحاً ؛ وذلك باقتباس علومهم المختلفة . لذلك رأيناهم يرسلون البعثات العلمية بالمئات لتحصيل كل نافع ، ثم ترجموا العلوم أولا ؛ لأن حاجتهم إلى العلم كانت أشد من حاجتهم إلى الأدب أو إلى مذاهب الإلحاد ، وهذا فيما نعلم عكس الاتجاه الذى سلكه المسلمون حتى زمن قريب . ويفسر لنا هذا المسلك لماذا ما برحنا متأخرين عن الغرب بأشواط بعيدة . أما اليابان فقد نهضت نهضة علمية حقيقية ، وأرغمت الأوروبيين على احترامها ؛ لأنها سابقتهم فى ميدان العلم والصناعة حتى سبقتهم .

وربما أمكن تفسير هذا الفارق بين اليابانيين والمسلمين بأن أمة اليابان لم تشهد من الكوارث التاريخية ما شهدت الأمة الإسلامية . فقد ظل اليابان مغلقاً فى وجه الغرب والمسيحية أكثر من قرنين من الزمان . ثم فتح أبوابه على العالم الخارجى ، فرأى أنه يستطيع هو الآخر أن ينشىء أمبراطورية عظمى ، وأن تحقيق هذا الأمل لا يكون إلا باصطناع الأساليب التى يستخدمها الغرب من إعداد القوة ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا بتحصيل العلم . أما بلاد المسلمين فقد فتحت أبوابها منذ أجيال بعيدة للغزو الأوروبى ، سواء أكان حربياً أم فكرياً ؛ لكنها بقيت فى أثناء ذلك بمعزل عن الحركة العلمية الصحيحة . وساعد على ركودها أن فلاسفة الغرب حرصوا على

التغرير بالشرق ، فأطروا أهله بأن شرقهم مهبط الوحى ومسرح الخيال ، وأن العقلية السامية لا تقوى على التعمق والتحليل وسبرغور الظواهر للكشف عن قوانينها . وفرح الشرقيون ، ومن بينهم المسلمون ، بهذا الإطراء ، وحسبوا أن خيالهم وروحانيتهم شيء أصيل فيهم ، ولو بحثوا فى أعماق نفوسهم ، فى الوقت الحاضر ، لوجدوها على غير كثير من الخيال والروحانية ، وأنهم جماعة من المرضى ، وأن الغرب قد أحسن التغرير بهم حتى يقضى على كل محاولة جدّية لتقليده تقليداً صحيحاً ، وأن له فى ذلك التغرير أساليب شتى ؛ فهو يعلم أنه لن يستمر مسيطراً على الشرق إلا إذا وقف فى سبيل نهضته عن طريق العلم . فقد شهدنا كيف اجتهد الإنجليز فى صرف المصريين عن المناهج الصحيحة ، وحاولوا أن يدخلوا فى روعهم أن بلادهم زراعية فحسب ، وأنها لا تصلح لأى نوع من الصناعة ، وبخاصة صناعة النسيج التى تتطلب جواً انجليزياً لا مصرياً ؛ ورأيناهم كيف غيّروا اتجاه التعليم ، وجعلوا يعدّون طبقة من الموظفين الذين يشبهون الآلات الصماء ، ولا يقطعون برأى دون الرجوع إلى رؤسائهم من الأجانب . وهكذا قضى على روح الابتكار وعلى الرغبة فى حرّية التصرف . وساءت الأداة الحكومية بعد خروج هؤلاء الرؤساء ؛ لأن المرؤسين ألفوا ألا يبتوا فى أمر من تلقاء أنفسهم ؛ بل لابد من مسئول يرجع إليه . فغدا كلٌّ يطرح المسئولية عن نفسه ليلقيها على غيره ، وبين هذا وهذا وذاك تضيع حقوق الناس .

وكيف لا يحاول الغرب خديعة الشرق ؟ إنه يوهمه أنه جاء إلى بلاده لكى ينهض بأهلها ، فيظن الشرقى أن سيطرة الغرب مؤقتة ، وينسى أن هذا

الغرب لن يفى بوعده . وكيف له أن يحترم عهداً وهو يرى رأى العين أن كلّ شعب يستعمره ، هو شعب جاهل خامل يقيم ببقاع خصبة غنية بالمعادن والثروات الطبيعية ، وبأقاليم تتسع للمشروعات الاقتصادية الكبرى؟ هذا إلى اعتدال جوها وموافقتها لحياة الجنس الأوروبى الذى يؤمن أنه أحق الناس باستغلال هذه البلاد ، وأنه ليس للشرقيين أن يحتجوا إذ لو كانوا فى مكان الأوروبيين لفعلوا مثلهم .

حـ — الجمع بين التعليم النظرى والعملى :

ولما كانت حياة أهل الشرق بالعلم الصحيح موتا لحكم الغرب فيهم (١) لم يكن بد من أن يحوّروا فكرتهم عن العلم تحويراً شاملا ؛ بحيث لا يكون العلم ثقافة سطحية هى أقرب إلى الجهل منها إلى أى شىء آخر . فيجب أن يهدف التعليم عندهم إلى الجمع بين الناحيتين النظرية والعملية. ذلك أننا نميل عادة إلى تقليد الأوروبيين فى مظهرهم، فنحسب أن العلم سبيل إلى الانصراف عن العمل اليدوى ، مع أن الأكثرية الغالبة من شباب أوروبا تنفر من الوظائف الحكومية ، وتتجه نحو الأعمال الحرة ؛ لأنها أقصر الطرق إلى تحصيل الثروة والرفاهية . فيجب إذن أن نقلّد الغرب فى اتجاهاته الصحيحة وأن ننظر بعين الحذر إلى اندفاع شبابنا إلى الدراسات النظرية التى تخلق طبقة من المستهلكين لا المنتجين . وقد آن للشرق أن يعلم أن مستقبله رهن بالعمل والإنتاج ، فإن أصغر دول الغرب رقعة ربما كانت تفوق فى إنتاجها ممالك الشرق الأوسط بأسرها .

---

(١) وهذه كلمة لجمال الدين الأفغانى .

وليس من بأس أن يُعلّم الطفل الحدادة والنجارة وتربية الحيوان إلى جانب القراءة والكتابة والحساب « حتى يخرج رجل علم وعمل ، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل ، يكثر به وبأمثاله العدد ولا ينتفع به أحد »، وحتى لا تجد الأقطار الشرقية نفسها أمام تلك الأزمات الشاذة التى يسمونها « أزمات المتعلمين » ويريدون بها ، أن خرّيجى الجامعات أو المدارس العليا لا يجدون عملا يتناسب مع مؤهلاتهم العلمية . ونقول إنها أزمات شاذة ؛ لأنها غير معروفة فى الغرب بل تجرى الأمور على عكس ذلك ؛ فإننا نسمع بين حين وحين أن إقبال الشباب المتعلم على الأعمال الحرة فى المعامل والمصانع يزعج أساتذة الجامعات إلى حد كبير ؛ لأنهم يرون أن خيرة المتخرجين ينصرفون عن مهنة التدريس فى الجامعات مما ينذر بهبوط المستوى العلمى عندهم.

أما فى الشرق فما زالت العلوم النظرية والآراء الفلسفية والدراسات التاريخية تحتل المقام الأول فى المعاهد . وكثيراً ما يتجه المتخرجون فى المدارس العملية إلى الكليات النظرية للحصول على مؤهل علمى يتيح لهم الظفر بإحدى الوظائف الكتابية ، فراراً من عناء مهنتهم العملية ، ومن سوء تقدير الناس لها . وهذا هو أحد أسباب تأخر الشرق حتى الآن . فإنه بدأ يقلد الغرب قبل اليابان ، لكنه لم يصل بعد إلى ما أدركته هذه الأمة من قوة وثروة . ذلك أن العلم الصحيح هو الذى يجمع بين الجانب النظرى والعملى . وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية فيما مضى بسبب العلم . واليوم يفوقنا الغرب أيضاً بسبب العلم ؛ لأنه مصدر القوة والسطوة ، بينما يستسلم له الشرق بسبب الجهل، وهو منبع كل ضعف وتخاذل . وقد يقال إن شباب الشرق مكره على الاتجاه إلى الدراسات النظرية لأن منافذ العمل مسدودة

أمامه بكل سبيل : ولا ندرى إذا كان أصحاب هذا الرأى جادون فيما يقولون ؛ لأننا نرى كيف نزح الأجانب إلى بلدنا ، فوجدوا فى مجال الاقتصاد والصناعة مجالا فسيحاً كان سبباً فى ثرائهم وفى سيطرتهم على توجيه الاقتصاد القومى . فالمسألة إذن مسألة تربية وإعداد وتوجيه . وربما كان حظنا فى هذه الأمور قليلا منذ عدة أجيال .

غير أنه إذا وجب علينا أن نأخذ عن الغرب علومه النظرية والعملية فليس معنى ذلك أن نعتقد أن الحضارة الأوروبية المادية هى المثل الأعلى الذى ينبغى لنا تحقيقه فى الشرق . حقاً إن العلم قد تقدم تقدماً مذهلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وما برح مجال التقدم فيه غير محدود . لكن العلم لا يوصف بالخير أو الشر فى ذاته ؛ بل الإنسان هو الذى يحسن أو يسىء توجيهه . وقد رأينا كيف غلبت النزعة المادية على أهل أوروبا فسخروا العلم ، لا لنفع البشر ؛ بل استخدموه أكثر ما استخدموه فى صنع أدوات القتال ، واستعانوا به على استرقاق الأمم المتخلفة واحتكار ثرواتها الطبيعية ، أو لأشعال نيران الحروب العالمية فى قارتهم وفى غيرها . وقد غلت الأمم الغربية فى هذا الاتجاه المادى إلى حد أن كثيراً من عقلائها يرى أن الحضارة الأوروبية مهددة بالإفلاس والتدهور إن سارت فى طريق النزعة المادية حتى نهايته . ومن قبل قال جمال الدين شيئاً من هذا القبيل فى أحاديثه الخاصة . وهذا هو ما ردّده « غاندى » من بعده ، وهذا هو ما يخشاه الأوروبيون أنفسهم فى منتصف القرن العشرين . فهل يحق لأحد أن يسارع إلى اتهام الأفغانى بعدائه للعلم ، مع أنه نادى منذ ستين عاما بأن العلم الصحيح هو الذى يقود إلى السلام والرخاء ، لا إلى الحرب والفناء ؟

وربما كان جمال الدين الأفغانى الذى قيل إنه يحارب العلم الحديث أكثر فهما لحقيقة هذا العلم من كثير من فلاسفة الغرب فى عصره من أمثال أوجست كونت ، الذى كان يسخر من الفلكيين الذين يريدون الكشف عن أجرام سماوية جديدة ، بحجة أن هذه الكشوف لا تعود على المجتمع الإنسانى بأى نفع ما ؛ فى حين يقول الأفغانى: « كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفانى خاضعة للعقل المطلق الإنسانى فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سوف يكون غدا ممكنا » . كذلك كان يعتقد أن كل ما يوجد على وجه الأرض له سبب ، وإن خفى ، وأنه يمكن تفسير الأشياء جميعها بإرجاعها إلى أسبابها . أما تفسير بعض الحوادث والظواهر بالصدفة والاتفاق فلا يرتضيه سوى الجاهل . فإن الصدفة لا تفسر شيئا ؛ بل هى دليل جهلنا بحقيقة الأشياء . ولذلك تكثر الصدف عند الجاهل أما فى نظر العلم فهى قليلة ، وعند القدرة الإلهية معدومة ولا وجود لها . وهذا هو ما ردده العلماء الأوروبيون بعده ، وبعبارات تشبه عباراته شبها عجيباً . (١)

كذلك اهتدى جمال الدين إلى فكرة يعتز بها علماء العصر ، وهى نسبية العلم الذى لا يكاد يقف عن حد ، والذى يكمل مع الزمن ، دون أن يصل إلى غايته أبدا ؛ فإن العلم أوسع من أن تحيط به حياة الفرد أو حياة الأمم ، وكل ما وصل إلينا من العلوم مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين ، وعلى مدى الأجيال العديدة لم تزل بالنسبة إلى الحقائق الثابتة فيها

---

(١) قال هنرى بوانكاريه فى كتابه « قيمة العلم » : إن القانون (الطبيعى) من أحدث الكشوف التى اهتدى إليها العقل الإنسانى . وما زالت توجد شعوب تعيش فى معجزات مستمرة ، دون أن تبدى دهشتها لذلك . أما نحن فيجب أن ندهش من اطراد الطبيعة ونظامها .

علوما ناقصة ، أو هى فى حقيقتها قشور لتلك العلوم فى غايتها وحقيقتها .. وتلك هى الفكرة التى سادت فى أوروبا بعد موت الأفغانى ، والتى ما زالت تسود حتى الآن . (١)

وإنما أبحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا فى حديثنا عن فكرة جمال الدين فى العلم ، لكى نبين أنه أكثر فهما لحقيقة العلم الصحيح ورسالته مما يظن هؤلاء الذين رموه بأنه كان مناهضاً للثقافة الغربية ، وأنه حرم الشرق من اقتباس هذه الثقافة ، وأنه عاد بالمسلمين إلى الوراء ، وشغلهم عن مستقبلهم بالدعوة إلى الهياج والثورة والعودة إلى القديم . ونقول إنه أكثر فهما لقيمة العلم مما يزعم هؤلاء الذين ينسبون إليه رأيا لم يقل به ؛ لأنه لم يقف فى دعوته عند حد الحض على الثورات السياسية ؛ بل دعا المسلمين إلى الخروج من ثقافتهم الراكدة ، وحثهم على تحصيل العلوم الحقة التى ربما أتاحت لهم الدفاع عن أنفسهم .

على أنه ينبغى ألا نخصص أكثر من هذا القدر للرد على هؤلاء الذين يحاولون الحط من شأن رائد المصلحين فى العصر الأخير ؛ إذ الحكم بيننا وبينهم هو مسلك الأمم الإسلامية فى الوقت الحاضر . فإن أكثر هذه الأمم تقدما هى تلك التى تبعت تعاليم الأفغانى ، فبدأت تجمع بين الدراسات النظرية والعلمية ؛ فى حين أن أكثرها تخلفا هى تلك التى ما برحت تقنع بالدراسات النظرية السطحية التى يخيّل إليها أنها هى المعرفة الحقة . ولقد حسب بعض الناس أن هذه المعرفة النظرية تكفى فى إصلاح حال المسلمين ؛

---

(١) لمرجع إلى كتابنا فى المنطق الحديث ومناهج البحث ، الطبعة الثانية ص ١٣٦ـ١٣٧

لكن خفى عن أصحاب هذا الرأى أن هذه الحال بلغت من السوء مبلغا لا يجدى معه أن تنشر الأفكار الفلسفية والأخلاقية لتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق فى أمم عم فيها الذهول ، وسيطر الجهل فيها غير منازع . فماذا تجدى هذه الأفكار فى أمة قل قارئوها ، وندر الفاهمون من بين هذه القلة ؟ هذا إلى أن من قد يستطيع الفهم منهم ربما حمل الكلام على غير معناه « لضيق فى التصور أو ميل مع الهوى . »

حقاً إن مثل هذه الآراء الفلسفية قد تؤتى ثمارها فى الأمم المتحضرة ، التى أخذت بنصيبها من العلم والرفاهية ، فهفت نفوس أفرادها إلى الاطلاع على الجديد من النظريات الأدبية والسياسية ؛ لأنها تجد فى ذلك نوعا من الترف العقلى الذى ينسيها مشاكل الحياة المادية لوقت قصير تعود بعده إلى حياة الجد والعمل . وليس ذاك الشأن فيما نعلم شأن البلاد الشرقية ؛ بل إن الترف العقلى فى مثل هذه الحال يشبه الطعام الجيّد الذى لا يلائم طبع المريض فتزيد العلة حدة ، وتزداد الصحة سوءاً . وكيف لنا أن نحدّث ذوى البطون الخاوية والأقدام العارية عن نظريات فلسفية كنظرية النشوء والارتقاء لدى « داروين » ونظرية الواجب الأخلاقى كما كان يفهمها « كانت » ؟ إن ما يحتاج إليه أصحاب هذه البطون والأقدام هو معرفة علمية عملية تقتل جوعهم ، وتحفظ أقدامهم من وهج الحر وقذارة الطريق . وبعد ذلك فقط يمكن أن نحدثهم عن نظريات العصر الحديث ونظريات العصر القديم . أما قبل ذلك فلابد من أن يحيا الإنسان قبل أن يتفلسف .

هـ — العلم وحده لا يكفى :

لقد خيل إلى الإمام محمد عبده أن الإصلاح إنما يكون بإنشاء المدارس العامة دفعة واحدة ، فى كل بقعة من بقاع الممالك الإسلامية ، وبجعلها على نسق مدارس أوروبا . وهكذا تتم المعرفة بسرعة ، وتتقدم الأخلاق تبعا لتقدم العلم . لكن أستاذه كان أبعد نظراً وأصدق حدسا ؛ لأنه كان يرى أن العلم لا يكفى فى النهضة بالأخلاق ، وهذا ما أثبته تطور العلم فيما بعد ؛ فإن بعض المدارس الفلسفية فى أوروبا حاولت اتخاذ العلم أساساً للأخلاق بدلا من الدين ، ونعنى بها مدرسة علم الاجتماع الفرنسى ، غير أنها لم تفلح ؛ وعاد المصلحون يقولون بضرورة الدين لبناء الأخلاق (١) . كذلك فطن الأفغانى إلى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تسيطر فى عصره لا تتيح تحقيق فكرة تلميذه . حقاً قد تكون الفكرة جليلة فى حد ذاتها ؛ لكنها عسيرة التحقيق ومشكوك فى نتائجها ؛ إذ ... ما أبعد ما يظنون . فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزمانا ، حتى تذوق لذته ، وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته ، قائماً مقامها فى تنفيذ ما أراد من خيرها ؛ ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة . وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه . فهل مع الضعف قوة تقهر ، وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين . فإن قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون ، وما هو كائن من طمع الأقوياء ، حتى لا يدعوا إليهم سبيلا لأن يستنشقوا

(١) أنظر كتابنا جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ص ١٣١ — ١٣٢

نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ على أننا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد والاستزادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ؟ » (١)

ثم إن بعض الشرقيين قد يبلغ درجة الكمال فى تحصيل العلم والفلسفة ، وربما قيل إنهم يستطيعون إرشاد إخوانهم . لكن ليس القول بمنطبق دائما على الواقع ؛ فإنه لا يكفى أن تنقل النظريات إلى بيئة ما لكى تنجح فيها ؛ بل من الضرورى أن تعدل هذه البيئة وأن تحور تحويراً أساسياً حتى تستعد لقبول العلوم الحديثة . فإن هذه العلوم نشأت فى الأمم الأوروبية فى ظروف محددة ، ثم ازدهرت بعد أن قطعت فى نموها مراحل معينة . فإذا هى نقلت دفعة واحدة ، إلى بيئة لا تناسبها فإنها توشك أن تؤدى إلى عكس الغاية المرجوة منها ؛ إذ كيف تتسرب إلى الأذهان المشحونة بأفكار وتقاليد عتيقة لا تتلاءم مع هذه الآراء الجديدة ، وبخاصة إذا كانت آراء فلسفية أو نظرية لا تتصل بحياة الأمة ؟

إن الشرق فى حاجة إلى الحياة قبل حاجته إلى الفلسفة ، وهو أشد احتياجاً إلى الفنون العملية منه إلى الآراء النظرية . وإن أفضل النظريات السياسية أو الأخلاقية لتعجز عن تعديل أخلاق الأفراد وإرشادهم إلى طرق الرشاد بل من الضرورى أن يتم التقدم المادى أولا لأنه أساس لكل تقدم ثقافى أو فلسفى . فإذا قيل إن اليابان قد نجح فى نقله للعلوم الأوروبية دفعة واحدة

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

وليس هناك ما يحول دون أن يسير الشرق الإسلامى كله على نهجه قلنا إن هذا الشرق لم يفعل كما فعل أهل اليابان ؛ لأن بيئة اليابان تختلف عن بيئتنا ، ولأن سياسة اليابان سياسة دولة مستقلة تأخذ ما تريد وتدع ما لا تريد ؛ فى حين أن الشرق الإسلامى كان تحت سيطرة أو نفوذ الغرب . وهذا هو السبب فى أن ناقلى هذه العلوم — إن وجدوا — يعجزون عن التحرر من أوهامهم المألوفة ومما رسخ فى نفوسهم ، على عهد الصبا ، من تعظيم الأمم الغربية ، فيأخذون عنها علوما نظرية يسمعونها وقد لا يفهمونها ، ثم لا يراعون مناسبتها لأبناء أمتهم . هذا إلى أنهم قد يفقدون حاسة النقد والحكم السليم ، فيعتقدون أنهم أدركوا غاية العلم .

وحقيقة فشلت حركة النقل والاقتباس حتى مطلع القرن الحالى ؛ لأنها كانت تتجه إلى العلوم النظرية والآداب أكثر منها إلى الفنون العملية وإلى العلوم الطبيعية . هذا إلى أهل الشرق لم يحاولوا الجمع أو التوفيق بين الثقافتين الغربية والشرقية ، على الرغم من البعثات العديدة التى أرسلت فى القرن الماضى . ذلك لأن الشرقيين عنوا فى الواقع بالمظاهر الغربية أكثر من عنايتهم بالجوهر لذلك لم تحقق بعثاتهم نفعاً كبيراً ، ولم تتغير أحوال هذه الدول من الضعف إلى القوة . وقد تساءل الأفغانى فقال : « هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ . . وهل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ » ويمضى جمال الدين فى تساؤله وتعجبه ، وهو آمن من أن يجد أحداً يناقضه . فإن التاريخ يشهد بأن مصر والدولة العثمانية أخذتا فى الانحلال فى القرن التاسع عشر

حتى سقطت الأولى فى يد الإنجليز ، وحتى أصبحت الثانية دولة مريضة، ثم لم تلبث أن فقدت ولاياتها فى الشرق والغرب .

فإذا قيل ألم يفد الشرقيون شيئاً من اتصالهم بالحضارة الغربية ، وهل يعقل أن الاحتكاك المستمر بهذه الحضارة لم يؤد إلى ثمرة ما ، أجاب الأفغانى : نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفيقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غاياتها ، ولا تعلم بداياتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية ، أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المساكن والمبانى ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأوروبية وعدوها من مفاخرهم .

وربما قيل إن جمال الدين يقسو على معاصريه . لكننا إذا ألقينا ببصرنا على عهد سعيد وإسماعيل رأينا كيف شيدت القصور والحدائق وجمّلت مصر ، كما يقولون ، ومع ذلك فإن كلا من التجميل والتحسين لم يتجاوز بعض المدن الكبرى ، كالقاهرة والإسكندرية ؛ بينما بقى الريف المصرى فى مظهره العتيق المحزن ، حيث تتجمع الدور البائسة كقطع من الطين التى تشوه جمال الحقول. هذا وما زلنا نرى فى عصرنا ، وفى كل مرافق الحياة الخاصة أو العامة ، فى أكثر الدول الشرقية ، أن العناية بالمظهر أكثر منها بالجوهر . فتقام الأبنية الضخمة للجامعات على نمط ربما لا نجد له مثيلا فى كثير من عواصم أوروبا. فإن جامعة باريس مثلا ، على شهرتها العلمية ، لتستحى من أن تقف إلى جانب

جامعاتنا تطاولها بروعة البناء أو شدة البذخ، لكن الفارق الكبير بين الحركة العلمية فى كل من فرنسا ومصر أكبر من أن يشار إليه .

وإنك لترى جامعات الأقاليم هناك فى قصور أثرية قديمة ، ومع ذلك فهى لا تفترساعة من نهار : يتردد الطلاب على معاملها ومكاتبها دون انقطاع ؛ بل إن المكاتب هناك ربما فاقت قاعات المحاضرات فى نفعها . فالمظهر لا يهمهم بقدر ما تعنيهم جدوى الدراسات ونفعها . أما فى الشرق فقد تنفق مئات الألوف من الجنيهات على بناء معهد من المعاهد العملية ، فترى بناء شامخا ، لكنه لا يحتوى على المعامل الضرورية للبحوث . ولو وجدت هذه المعامل فسرعان ما يتطرق إليها العطب بسبب الإهمال وسوء الاستخدام ، فلا يتحقق الهدف من إنشائها ؛ بل ربما جال فى خاطر المرء أنه كان من الأولى أن تنفق هذه الأموال الطائلة فى أغراض أخرى . فإن الأمة أحوج إلى المال لملء بطون الجائعين منها إلى تبديده فى تجهيز المعامل التى لا يمكن الانتفاع منها .

تلك هى الأسباب التى دعت جمال الدين إلى النظر بعين الريبة إلى هؤلاء الذين تتلمذوا على الغرب فى عصره، أو فيما قبل ذلك . وربما وجب أن نتلمس له العذر ؛ فإن ملوك المسلمين وأمراءهم ما كانوا يعنون بالعلوم الحديثة عنايتهم بمظاهر الترف . وربما كان هؤلاء الذين أُخِذوا بمظاهر الحياة الأوروبية هم الذين سيطروا على مصائر الشعوب الإسلامية ، ومهدوا لدخول الأجنبى إلى بلادهم ، كما حدث فى إيران، وفى مصر عندما كان المتعلمون فى الغرب موضع ثقة المستعمر . وحقيقة حدث شىء من هذا القبيل ، فى جميع الأقطار الإسلامية التى وقعت تحت سيطرة الغرب . غير أننا نعتقد أن جمال الدين أفرط فى غلوه

وتشاؤمه حتى ظنه بعض الناس عدواً للحضارة الأوروبية، وإن لم يكن هناك ما يوجب هذا الظن .

على أن تجارب الشرق منذ بدء هذا القرن أثبتت أنه من الممكن أن توجد طبقة من صميم طبقات الشعب تستطيع الاطلاع على الحضارة الغربية ، دون أن تفقد شخصيتها ، أو تنسى أصولها ومنابتها ؛ بل رأينا أن كثيراً من الشعوب التى فرضت عليها الثقافات الأجنبية فرضا ، كما هى الحال فى شمال أفريقيا ، لم تزدد إلا رغبة فى التحرر ؛ لأن الطبقة المثقفة فيها بالثقافة الأوروبية هى التى تقود الجماهير هناك . ولا ريب فى أن تطور الحياة الاجتماعية فى بلاد الشرق فى عشرات السنين الأخيرة يؤذن بظهور طبقة من المطلعين على الثقافتين الشرقية والغربية ممن يستطيعون التوفيق بين الجديد والقديم فى غير إفراط ولا تفريط . وفى رأينا أن مستقبل البلاد الإسلامية رهن بهذا التوفيق . فإنه لا يجدى فى شىء أن نظل جامدين ؛ بينما يسير العالم بأسره بخطا واسعة فى الاتجاه العلمى . وليس من حسن السياسة فى التفكير أن نحارب الجديد باسم ما ينطوى عليه القديم من خرافات وأوهام ؛ بل الأجدر الجمع بين خير العناصر فى القديم والجديد .

أما فيما يمس تشاؤم الأفغانى فهناك مايبرره ، لأنه عاش فى عصر غير عصرنا ، وفى زمن تمزقت فيه الأمة الإسلامية ، وأحدقت بها الأخطار من كل جانب . فهو فى عجلة من أمره ، لا يريد أن يتبع رأى المثبطين للهمم من القائلين بضرورة التدرج . وهو يعجب لهم كيف يرجئون الإصلاح فى أشد الأوقات حاجة إليه . إنهم لايفعلون سوى أن يلقوا على الزمن عبئا يعجزون هم عن النهوض به ، ثم يظنون أن الأيام كفيلة بحل المشاكل دون أن يبذلوا

من ذات أنفسهم شيئا ، أو دون بذل القليل منها . لقد كان أولى بهم فى رأيه أن يبحثوا عن العوامل التى صحبت نشأة الأمة الإسلامية وأدت إلى نهوضها الأول . ولئن اهتدوا إلى هذه العوامل لعرفوا أن الدين كان سبباً فى جمع كلمة هـــذه الأمة وبسط سلطانها . فالعودة إلى الدين أقصر طرق الإصلاح وأسلمها .

٥ — النهضة عن طريق الدين

— الدين والوحدة الإسلامية :

لقد ظهر الإسلام بين أمة تشبه أن تكون أمة بدائية مزقتها العصبية الجاهلية ، وسادت فيها الفردية المفرطة فلا تعاطف ولا إخاء ؛ وإنما تنابذ وتفاخر بالأجداد والأسلاف ، فمحا الدين ذلك كله دفعة واحدة ، وتشربت به النفوس فغدا الناس بنعمة الله إخوانا ، وانمحت العصبية القبلية ، وأصبح الفضل لذوى التقوى ، من العرب والعجم على حد سواء . وقد نجح الدين الجديد فى توحيد القلوب والتسوية بين الأجناس نجاحاً لم يحظ به دين آخر . وعلى الرغم من المحن والكوارث التى حلت بالمسلمين فى عصور تدهورهم فما زالت فى طيات نفوسهم آثار من هـذه العاطفة الإسلامية . حقا إنها آثار ضئيلة لا تدفع شراً ، ولا تأتى بخير فى عصرهم الراهن ، ولكنها بذرة صالحة يمكن أن تنمو وتزدهر ، فتقضى على عوامل الخلاف بينهم .

لذلك يرى أنصار الإصلاح الدينى ، وعلى رأسهم جمال الدين ، أن المسلمين لو عادوا — والعود يسير لا يقتضى جهداً ولا زمنا ، وإنما يتطلب

من كل امرئ منهم أن يضحى بعناصر الشر التى تكمن أو تختمر فى قلبه — نقول لو عادوا إلى دينهم لاستطاعوا أن يقضوا على أسباب الخلاف بينهم ، ولعلموا أنه ليست هناك وراثة فى الملك فى الإسلام ، أو امتياز فى الجنس أو قوة العصبية ؛ بل الميزة التى يفضل بها الناس بعضهم بعضا هى الوقوف عند أحكام الشريعة ، والقدرة على تنفيذها ، والعمل على النهوض بالأمة عن طريق الاشتراكية الإسلامية التى تقوم على حكم الشورى . وهذا الإخاء ، الذى يقوم على أساسه الإصلاح السياسى والاجتماعى ، هو ما يمكن تلخيصه فى قول الرسول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية . »

فالرابطة الإسلامية الحقيقية كفيلة بالقضاء على أسباب الخلاف وعلى الصراع الطائفى أو المذهبى . وبها وحدها يستطيع المسلمون أن يكوّنوا أمة واحدة ، يحسب لها الأجنبى حسابها . وقد أحسن السلطان عبد الحميد الإفادة من هذه الرابطة للتهويل على الأمم الأوروبية عندما كان ينذرها بأن أى اعتداء أوروبى على أية ولاية عثمانية سوف يثير المسلمين فى مختلف البلاد الإسلامية وبخاصة فى الهند . وقد أفلحت هذه الحيلة فترة من الزمن ، حتى بلغت دولة آل عثمان من الضعف غاية لا تجدى معها ثورة المسلمين فى بلاد الهند أو فى غيرها . وهكذا نفهم لماذا ألح الأفغانى فى ضرورة تقوية هذه الرابطة ، ولماذا حاول جمع المسلمين على كلمة واحدة . وأيا كان الأمر فقد أبرأ ذمته ، وبذل من أجل هذه الأمة كلّ ما ينبغى أن يبذل .

ولئن أدركه اليأس من أمرها إثر هذا الجهاد المستمر فإن دعوته وجدت آذانا واعية ، وبدأت الأقطار الإسلامية طريقها نحو الاتحاد . ولم يعد

الغرب يسخر برابطتهم ؛ بل يقدّرها قدرها ، ويعترف أنها أقوى من أية رابطة يعقدها دين آخر بين أتباعه . فمثلا يشهد لوثرب ستودارد بأن من يريد حقيقة أن يعلم الهدف الذى يرمى إليه الإسلام من الرابطة الدينية فليلق ببصره على المسلمين فى العصر الراهن ، وليستمع إلى تجاوب التعاطف والحنين بينهم حتى يقف على سر هذه الرابطة ، وعلى مكانتها فى نفوس المسلمين . فى الحق ليس هناك دين من الأديان يؤلف بين قلوب أبنائه ويوحّد شعورهم ويحفزهم إلى التضامن والأخوّة والاستمساك بعروتها كالدين الإسلامى . ولقد فتح المسلمون من الأمصار ما فتحوا ، ودخل فى دينهم كثير من الأمم ، ثم حلت بهم الكوارث فلم نسمع أن شعبا صبأ بعد أن أسلم .

ونقول نحن من جانبنا إن الرابطة الإسلامية التى كانت غاية فى الوهن فى أواخر القرن التاسع عشر قد تأكدّت وقويت ، ولم تعد مجرد عاطفة سطحية عابرة ؛ بل أصبحت رابطة تدعو إلى العمل ، بعد أن كانت قاصرة على مجرد التحسر والشكوى . وإن فى موقف الدول الإسلامية من ثورة الجزائر ومراكش فى هذا العام دليلا على جدوى التعاون بين المسلمين فى مختلف أقطارهم . حقا لم يتكشف الزمن بعد تماما عن نتائج هذا التضامن . ولكننا نرى أن المستعمرين بدأوا يحسبون لرغبات أهل المغرب حسابها ؛ فى حين أنهم لم يحفلوا بالرأى الإسلامى عندما قامت ثورة الريف المراكشى منذ نحو من ثلاثين عاما .

ب — الدين والإصلاح :

فالدين إذن أساس لكل إصلاح ، ولكن بشرط أن يكون بريئا من

محدثات البدع ؛ إذ به يأتلف الشمل ، وتنبعث النفوس إلى تفضيل الشرف على لذة الحياة نفسها ، وإلى كسب الفضائل والعلوم ، وهى سلاح المجتمع فى القديم والحديث . ولقد آن للمسلمين أن يدركوا أن ما عرض لأمتهم من التدهور إنما كان بسبب الخروج على الأصول الدينية السمحة والتشبث بالبدع التى أقامها الناس مقام الأصول والعقائد الصحيحة . فالعلاج الناجع لا يكون إذن إلا برجوع هذه الأمة إلى أصول دينها ، والأخذ بأحكامه ، وإرشاد العامة إرشاداً قويما يكفل تطهير القلوب من الدغل ، وتهذيب الأخلاق من الدنس ، ويوقد نيران الغيرة ، ويبعث المسلمين على بيع أرواحهم من أجل أمتهم .

والحق أن الإصلاح الدينى أيسر منالا وأقصر طريقا ، وفيه تفضل القدوة الحسنة كل موعظة أو خطابة . والعاطفة الدينية الملتهبة تصنع من المعجزات ما تقصر دونه أية عاطفة أخرى ؛ بل هى أساس ومنبع لكل عاطفة سامية غيرها ، سواء أكانت عاطفة وطنية أو أخلاقية . وإن من يطلب الإصلاح من غير هذه الطريق فإنما يركب من أمره شططا ، فيجعل النهاية بداية ، ويعكس أساليب التربية ، ويخالف قوانين التطور الاجتماعى . فماذا يجدى علم دون دين أو خلق ؟ إنه أولى أن يؤدى إلى عكس ما يريد المصلحون ، وربما كان سببا فى أن تزداد الأمة فساداً وانتكاسا .

وقد تخيّل جمال الدين كيف يمكن أن يتم الإصلاح عن طريق الدين ، فضرب لنا هذا المثال فقال : لو أن حاكما صغيراً من بين أمراء المسلمين اهتدى إلى طريق الإصلاح المثلى ، فجعل الأوامر الدينية قانونا لولايته ، وأخذ ينفذ حدود الدين فى غير تفرقة بين رعيته وأهله وساهم مع المحكومين

فى التزام الأخلاق الإسلامية ، وصدف عما ابتلى به ملوك المسلمين من الرغبة فى التظاهر بالعظمة والبذخ المخجل لاستطاع أن ينال عظمة الملك وبسطة السلطان ، وأن يكتسب الأنصار والأتباع ، فى مختلف البقاع الإسلامية ، دون أن يتجشم فى ذلك تعبا أو جهداً ، أو يضطر إلى إنفاق المال لإعداد الجيوش أو التحالف مع الدول الكبرى ؛ إذ سيجد نفسه فى غنى عن ذلك كله بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأسس الإسلامية الأولى ، وسوف يكون منهجه قدوة لغيره من أمراء المسلمين .

وهذا هو ما يعتقده دعاة الإصلاح الدينى عادة . غير أننا نراهم يضعون حلولا ساذجة لمشاكل ضخمة ، ويتخيلون طرقا مثالية بعيدة عن واقع الحياة ونواميسها . ولذا فإن فكرتهم لا تثبت أمام النقد . حقا إننا لا ننكر مطلقا أن الإصلاح الدينى أساس لكل إصلاح آخر ؛ لاعتقادنا أن الأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقاً بالدين ، وأنه لا أمل فى نهضة أمة تدهورت أخلاقها . لكننا نرى الأفغانى يبسّط الأمور أكثر مما يقتضيه الحكم السديد الذى عرفناه له ؛ لأنه ينظر إليها من زواية ضيقة . فإن هذا الحاكم الصغير لا يستطيع تغيير قوانين العمران أو بسط سلطانه على بقية الأقطار بمثل هذا اليسر البالغ . فإنا نرى ملوكا طبقوا الشريعة وأقاموا الحدود غير أنهم بعيدون عن أن يبسطوا سلطانهم على العالم الإسلامى . هذا إلى أن الناحية الدينية ترتبط بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وثقافة ، وجميع هذه العوامل يؤثر بعضها فى بعض ، وهى لا تتطور فرادى كل فى طريقها لا تلوى على شىء ؛ بل إنها تتشابك وتتداخل وتتقاطع وتفضى إلى ظواهر جديدة .

فالعودة إلى الحياة الاجتماعية التى عرفها السلف مثال أعلى يستحيل

تحقيقه . ولكن من الممكن أن يعود المسلمون إلى أخلاقهم الأولى فى الوقت الذى لا يهملون فيه النواحى العلمية والاقتصادية والعمرانية . وفى جملة القول لا نرى أن الإصلاح يمكن حصره فى مجال أو ميدان واحد ؛ بل من الضرورى أن يمتد إلى جميع الميادين الأخرى ؛ إذ كيف نتطلب جودة العقيدة وحسن الخلق لدى الجاهل المعدم الذى تضطره حياته أن يمد يده إلى مال غيره ؟ لا ريب فى أن قطع هذه اليد خير رادع للآخرين . لكن أليس من المستحسن أيضا أن يقل عدد الأيدى المبتورة لا عن طريق الإرهاب مع البؤس الشامل ؛ بل بالنهضة الاقتصادية والأساليب الاجتماعية التى تتبعها الدول المتحضرة التى ترى رعاية الفقير من أهم واجباتها ؟ ولو فرضنا أن أمة إسلامية استطاعت تحقيق شروط الحياة الاجتماعية التى عاش فيها المسلمون فى الصدر الأول فإن ذلك لا يحول دون أن تؤدى عوامل التطور إلى نفس النتائج ، بمعنى أن هذا المجتمع المثالى سوف يخضع لعوامل تاريخية وسياسية تجعله يتحول شيئا فشيئا حتى يشبه المجتمع الحديث .

غير أنه يجب علينا أن ننصف جمال الدين فنقول إنه نادى بضرورة الإصلاح فى النواحى السياسية والدينية والعلمية ، وكل ما يمكن أن يوجه إليه من نقد هو أنه لا يلح فى بيان الصلة الوثيقة بين هذه النواحى المختلفة . ويمكن توجيه مثل هذا النقد أيضا إلى تلميذه الأكبر . فإن محمد عبده ظن أن الإصلاح السياسى يمكن أن يتم بمعزل عن الإصلاح الدينى والعلمى . وقد زادت هذه التفرقة وضوحاً فى ذهنه بعد اختلافه مع أستاذه فى باريس وعودته إلى مصر . فهو يخبرنا أن فكرة الإصلاح لديه تتلخص فى الدعوة إلى أمرين خطيرين ، وهما تحرير الفكر من التقليد ، وفهم الدين فهما يتفق

مع ما درج عليه السلف قبل ظهور الفرق الكلامية . وبهذا وحده يمكن الرجوع إلى المصادر الأولى التى ترينا أن الدين ليس عدّوا للعلم والحضارة ؛ بل باعث على الكشف عن أسرار العالم ، وداع إلى قبول الحقائق العلمية الثابتة ، ودافع إلى أكمل الخلُق وأفضل العلم . أما الأمر الآخر الذى كان يشغله فهو إصلاح أساليب اللغة العربية ، حتى يسهل فهم النصوص الدينية ، وحتى تتسع اللغة ، من جانب آخر ، لما تتطلبه الثقافة العلمية الحديثة .

كذلك ينبئنا الشيخ محمد عبده أنه عنى ، أول الأمر ، بدعوة المصريين إلى معرفة حقوقهم على حكامهم ، وضرورة احتساب نفر منهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه جهر بهذا القول ، والاستبداد فى أشد عنفوانه ، قبيل الثورة العرابية وفى أثنائها . ثم يستمر فيقول إنه كان روح هذه الدعوة ، وإن لم يكن إمامها المتبع أو رئيسها المطاع . غير أنه يعترف ، فى نهاية الأمر ، أنه عدل عن فكرة الإصلاح السياسى ؛ إذ لم يحن بعد وقتها فى ظنه . وهنا يحيل الإمام مشكلة هذا الإصلاح على القضاء والقدر ، لأنه أيقن أن النهضة السياسية « ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال . فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . . . » فهو إذن من أنصار فكرة التدرج فى الإصلاح ، وهى تلك الفكرة التى لم يكن ليرتضيها جمال الدين . وفى رأينا أن التلميذ كان أقل طموحا وأملا من أستاذه ، وأنه كان يرتضى بعض آرائه ، وبخاصة رأيه القائل بأن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأسلم من إصلاحهم عن طريق التقليد الأعمى للحضارة الغربية .

حـ — التدين والتعصب :

ظن بعض المصلحين ممن تسربلوا بسرابيل الغرب ، وذهبوا فى تقليد الأوروبيين مذاهب الخبط والخلط ، أن الإصلاح المرجو لا يتم عن طريق الدين ؛ بل أولى به أن يتحقق باطّراح التعصب الدينى ، والاتجاه صراحة نحو الحضارة الغربية لاقتباسها بأكملها ، غير حافلين بالفروق العميقة التى توجد بين البيئة الإسلامية والبيئة الأوروبية ، ولا مميزين بين ما يصلح منها ومالا يصلح . ويصف الأفغانى هذه الفئة من دعاة الإصلاح بأنهم يتشدقون بأشياء لا يعلمون من حقيقتها شيئا ، ولا يفرقون فيها بين الحق والباطل ، وهم أبواق تردد ما يزعمه الغرب من تعصب المسلمين . مع أن هؤلاء هم أقل الناس تعصبا لدينهم بحسب الحق والواقع ، ولا أدل على ذلك من تفرقتهم بين العقيدة والعمل ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بدينهم إيمانا تاما لما كان هذا الإيمان مجرد صيغ تجرى على الألسنة أو عبارات تُقرأ فحسب ، فى الوقت الذى نرى فيه تخاذلهم وشقاقهم .

ففكرة التعصب التى تنسب إلى المسلمين زعم يزعمه المستعمرون ، وبخاصة إذا حاول رعاياهم من المسلمين أن يجمعوا كلمتهم أو يؤلفوا جبهة منهم للمطالبة بالقوت الذى يدفع عنهم المجاعة ؛ بينما ينعم الأجانب المستعمرون بكل خيرات بلادهم . ففى هذه الحالة يفتنّ المستعمرون فى وصفهم بالتعصب وكراهيتهم للمستعمرين لأنهم على دين غير دينهم ؛ وذلك لكى يثيروا الرأى الأوروبى المسيحى ضد هؤلاء الذين يجرأون على المطالبة بحق الحياة لأنفسهم . ثم تُعلَن التعبئة العامة ، وتجهز الجيوش وترسل لقتال هؤلاء المتمردين ، فتلقى القنابل على القرى الآمنة ، وتهدم الدور على أهلها ، وتسفك دماء

المئات بل الألوف من الثائرين ، وبعد ذلك يقال إنهم من المتعصبين الذين يضمرون الكراهية للأوروبيين وينكرون فضل هؤلاء عليهم : ألم يعمروا الأرض، وينشئوا المدن ؟ ولكن لمن عمروا وبنوا : ألأنفسهم أم للآخرين ؟ ويثور الرأى الأوروبى المسيحى حنقا على هؤلاء الذين يدفعهم تعصبهم إلى نكران الجميل وجحود أفضال الحضارة الأوروبية . أما إذا نجح الثائرون فى فرض ثورتهم فإننا لا نسمع حديثا عن تعصبهم ؛ بل يسارع أعداء الأمس إلى أساليبهم الأخرى للاحتفاظ ببقية من النفوذ فى ديار المسلمين .

من هذا يتبين لكل ذى فطنة أن أهل المسيحية أكثر تعصبا لبنى ملتهم من المسلمين فيما بينهم . ومع ذلك فكثيرا ما ينخدع المسلمون لدعاية الغرب فيصدقون أن رابطة الدين بينهم منبع كل عناء ، وأنها حجاب كثيف أوسدّ منيع بينهم وبين الفوز بتقدير أمم أوروبا ، وينسون أن التعاون الذى توجبه رابطة الدين فضيلة من الفضائل ؛ لأنه خير الوسائل لحفظ كيان أية أمة من الأمم ، وهو صفة موجودة فى كل شعب من الشعوب .

فليس التمسك برابطة الدين — أو التعصب لها أن شئت — أمرا مرذولا فى ذاته ؛ وإنما يقبح إذا خرج عن حد النخوة والنجدة إلى محاولة إلحاق الضرر بأتباع الديانات الأخرى ، بل هو مثار الحمية وهو الذى ينأى بأصحابه عن التسفل والخيانة وارتكاب الدنايا مما يعود على الأمة كلها بالضرر . أضف إلى ذلك أن تماسك الأمة واتجاهها نحو الفضيلة يكون بقدر تعاون أفرادها الذين تربطهم رابطة الدين ، وهى أقوى من رابطة الجنس . فإن هذا التعاون يزيد من قوة الأمة ، بحيث يصبح كل فرد من أفرادها بمنزلة العضو فى الجسد السليم « الذى لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ،

ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود»[1] فإذا انعدمت هذه الرابطة الدينية فى أمة من الأمم كان ذلك دليلا على تحلل الروابط الاجتماعية فيها ، وعلى تفرق الكلمة وتعدد الأهواء والنزعات . وعندئذ يجد الأجنبى سبيلا إلى استعبادها ، ولا تتاح لها النجاة إلا إذا تجددت الروابط بينها مرة أخرى . وفى الحقيقة لنا أن نعجب لأهل أوروبا الذين لا تخلو كتاباتهم من الحديث عن الروح المسيحية والحضارة المسيحية ، ثم نراهم يضجرون أو يسخرون من هؤلاء الذين يتحدثون عن الروح أو الرابطة الإسلامية .

غير أن للتعصب حدودا ، وخيره ما كان وسطا بين الإفراط والتفريط . فالتآخى والتعاطف والتعاون على الخير بين أفراد ملة واحدة لا يمكن أن يوصف بأنه تعصب ؛ بل هو نوع من التعاون الاجتماعى الذى تقرره الأديان جميعها ، ويوجبه كل عقل سليم . ومن ثم فإنا لا نأخذ على المسيحيين تضامنهم على الخير ، ولا نفهم كيف يأخذون على المسلمين تضامنهم على الخلاص من سيطرتهم ؛ فإن ذلك التضامن من أسمى ضروب الخير .

ثم إن التعاون بين أبناء الملة الواحدة يحتمل النقص والزيادة . فإذا انمحت الأخوة ، وحل العداء والشقاق محل المحبة والتضامن تسرب الوهن والضعف ؛ ولذا حق للأفغانى أن يصف أهل التفريط فى الرابطة الدينية بأنهم من الزنادقة الذين يزعمون أن التضامن بين أبناء كل دين يبتعد بهم عن طريق الحضارة ، ويحجبهم عن العلم والمعرفة ، ويحملهم على الجور والظلم تجاه من يخالفهم فى دينهم . ويظن هؤلاء الزنادقة أن انحلال الرابطة الدينية هو الشرط **الأساسى**

---

(١) العروة الوثقى ص ٩٩

فى التقدم ، ويزعمون أن الفوز معقود بتخليص العقول من العقائد والعودة إلى قانون الطبيعة . وإلى مثل هذا الرأى ذهب الملحدون فى جميع الأمم فى العصرين القديم والحديث ، ولدى الإغريق والفرس والعرب، فكان مذهبهم الإلحادى سببا فى القضاء على حضارات أممهم .(١)

إن أهل أوروبا ينكرون على المسلمين اعتزازهم بدينهم ، ومحاولة نجدة إخوانهم ممن تتكل بهم دول الغرب. ومع ذلك فإن الأوروبيين يفعلون أكثر مما يفعل المسلمون . حقا إنهم يقولون إنهم يعتزون برابطة الجنس لا برابطة الدين . ولكن ذلك لا يغير حقائق الأشياء ؛ لأن رابطة الجنس عندهم رابطة دينية فى الوقت نفسه ما دامت أوروبا مسيحية بأسرها . وإذا تظاهر أهلها بكراهية الحديث عن رابطة الدين إذا كانت خاصة بالمسلمين أو بهم هم أنفسهم فإنهم لا يخدعون أحدا . هذا إلى أنهم ينظرون ، فى كثير من الأحيان ، إلى من لا يتبع دينهم المسيحى من أبناء قارتهم ، نظرتهم إلى من ليس من جنسهم، مع أنه من الثابت تاريخيا أن معظم يهود أوروبا ينحدرون من نسل آرى لا سامى ؛ ذلك أن الدين اليهودى كان دينا تبشيريا فى عصوره الأولى ، وقد تسلل إلى أوروبا وانتشر فى كثير من بقاعها حتى جاءت المسيحية فأوقفت زحفه .

ولا نريد أن نتطرق هنا إلى مناقشات تاريخية سبقنا إليها بعض الكتاب من المحققين(٢)، وإنما يكفينا القول بأنهم إذا أصروا على التفرقة بين التعصب للجنس والتعصب للدين فإن رابطة الدين تشبه رابطة الجنس فى أنها من أجل

---

(١) انظر كتابنا عن جمال الدين الأفغانى من صفحة ١٢٩ — ١٧٤

(٢) كتب الدكتور عوض محمد عوض بحثا عن اليهودية

الفضائل وأكثرها نفعا إذا لم تتجاوز حد الاعتدال ، ولم تدفع أصحابها إلى ظلم الآخرين أو انتهاك حرمة المخالفين لهم فى العقيدة . ومن قبل حكم المسلمون شعوبا مسيحية ولم نسمع من المسيحيين أنفسهم أن حكامهم المسلمين جاروا عليهم أو أكرهوهم على ما يخالف عقائدهم . لكننا نعلم من جانب آخر أن رابطة الجنس التى يعتز بها الأوروبيون ، والتى يحاولون إقناعنا أنها ليست من الرابطة الدينية فى شىء كانت سبيلا إلى الجور ؛ بل ذريعة إلى إبادة أجناس بأسرها لكى تفسح المجال أمام الجنس الأبيض الذى اتفق أن كان يدين فى الوقت نفسه بالمسيحية .

وليت المسلمين أشبهوا المسيحيين الذين يعيشون بينهم فى ترابطهم وتعاونهم ! فإن هذا المسلك جدير بالإعجاب والمحاكاة ؛ بل إنا لنجد أن أهل الإسلام أولى بذلك لأن دينهم يدعوهم إلى محو الفروق بين الأجناس المختلفة فى ألوانها ولغاتها وعاداتها ؛ بل أديانها أيضا . وهذه — فيما نعلم ويعلم الأوروبيون المسيحيون أيضا — إحدى فضائل الإسلام الذى لا يفرق أهله بين الناس تبعا لألوانهم ؛ وإنما يرونهم جميعا إخوانا ، وهو الدين الذى وقف رسوله عند مرور جنازة يهودى فقيل له إنه يهودى ، فقال أليس نفسا ؟

٤ — التعصب فى الإسلام والمسيحية :

ومهما يكن من شىء فإن الرابطة الدينية التى تجمع بين المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، والتى تختلف قوة وضعفا تبعا لاقترابهم أو ابتعادهم عن أصول دينهم ، هى تلك الرابطة التى يخشاها الأوروبيون ، ولا يدخرون ذخرا لتفكيك عراها وصرف المسلمين عنها . وهم سيعجزون عن تحطيمها مادام

المسلمون يسترشدون بقبس من دينهم الذى نادى بالإخاء والمساواة وحققهما بالفعل بين أتباعه على اختلاف أجناسهم وألوانهم . وهذه الرابطة الاجتماعية الإنسانية هى التى يطلق عليها الأوروبيون اسم التعصب الدينى لدى المسلمين ، ويخلطون بينها وبين ما شهده الغرب من حروب وصراع بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى منذ بدء حركة الإصلاح الدينى . فلما انتشرت مبادىء الماسيونية فى أوروبا فى القرون الأخيرة اكتسبت كلمة التعصب لديهم معنى جديدا ، وهو غلو رجال الكنيسة وأتباعهم ووقوفهم فى وجه كل إصلاح مدنى أو سياسى .

أما التعصب الدينى لدى المسلمين فله معنى آخر لا بأس من الإلحاح فى بيانه ؛ لأنه يعبر عن الأخوة الدينية التى تسوى بين الأصفر والأبيض والأحمر ، وهذه المساواة طبيعية بين أهل العقيدة الواحدة ، وهى كفيلة بتحقيق أسباب القوة لهم مما يرد عنهم طمع الأمم المخالفة لهم فى اعتقادهم . وقد أدت هذه الرابطة رسالتها ، فدفعت بأمة كانت من أعرق الأمم فى الجاهلية وغلظة الأكباد وموات الضمير ، فجعلتها من أرقى الأمم فى وقت قصير ، ونعنى بها تلك القبائل العربية التى خرجت من شبه جزيرتها القاحلة فعمرت شطرا كبيرا من المعمورة حتى وقتنا هذا . ومع ذلك ظلت أكثر الأمم تسامحاً مع ذوى الديانات الأخرى ، فلم تخرج أحداً من دينه بالقوة أو العسف ؛ إذ كانت تعلم ، بلسان كتابها ، أنه لا أكراه فى الدين وأنه لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

ويشهد التاريخ أن العرب لم يكرهوا أمة على ترك دينها ؛ بل اوصاهم الرسول خيرا بأهل الكتاب ، على الرغم من غدر اليهود وعدائهم لدعوة

الإسلام. وأكثر من ذلك رأينا كيف حمى العرب اليهود فى بلاد الأندلس، وكيف عاش أصحاب الملل الثلاث عصوراً طويلة فى الشرق والغرب فى وفاق ووئام ؛ إذ تركت لغير المسلمين حريتهم الدينية لقاء جزية رمزية هى الثمن البخس للدفاع عن أموالهم وأرواحهم وعقائدهم ؛ بل قل إنها هى السبيل إلى مقاومة انتشار الدين الجديد لو شاؤا مقاومته . وذلك شأن القوى الكريم الذى لا ينازل أحداً إلا إذا وضع فى يده سلاحا يدفع به عن نفسه .

حقاً إن بعض الولاة اضطهدوا أهل الكتاب ، فى فترات نادرة من التاريخ الإسلامى ، ولكنهم كانوا ولاة من لاثقة بعقلهم أو دينهم كالحاكم بأمر الله الذى ادعى الألوهية ، وكان يغضب على المسيحيين أو اليهود فينكل بهم ، ويهدم معابدهم ، ثم يرضى عنهم فيقربهم إليه حسبما كان يمليه عليه مزاجه المضطرب . غير أننا لا نجد فى تاريخ المسلمين ولاة يشبهون الحاكم بأمر الله . وليس هناك من يستطيع اتهام المسلمين بأنهم فكّروا أو حاولوا التفكير فى إبادة مخالفيهم فى الدين ومحق وجودهم ؛ فى حين يشهد المسيحيون أنفسهم بأنهم تدفقوا على بلاد الشرق فى القرون الوسطى لا للدعوة إلى دينهم بالحسنى ، وإنما للفتك والإبادة . ذلك أن الحروب الصليبية التى اكتوى بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء كانت وليدة التعصب الدينى ، لكنه كان تعصباً دينياً من جانب واحد ، أى أنه كان تعصباً دينياً مسيحياً . كذلك فتك الإسبانيون بمسلمى الأندلس . ولا ريب أننا لا نأخذ على الإسبانيين أنهم أرادوا استرداد حريتهم وبلادهم . غير أن هناك فارقاً كبيراً بين الجهاد من أجل الاستقلال السياسى ، وبين التعصب الدينى العنيف الذى تمثل فى محاكم

التفتيش وفى إبادة المسلمين فى جزيرة الأندلس أو فى إكراههم على ترك دينهم إن أرادوا البقاء بها .

ويمكن الاستشهاد لتعصب المسيحيين بما وقع فى العصور المسيحية الأولى عند ما حصلت الشوكة لأهل هذا الدين ؛ فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم . ومهما اشتط المسلمون فى تعصبهم فإنه « لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم فى دينهم ، وما عُهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم فى عنفوان القوة ، وهى فى وهن الضعف . » وعلى الرغم من الفتوح الإسلامية لم يخرج المسلمون عن المبادىء التى حدّدها لهم دينهم فى معاملة المخالفين لهم فى عقائدهم ، وكان شعارهم دائماً هو أنه من يرضى بحمايتهم فله ما لهم وعليه ما عليهم ؛ بل بلغ من تسامحهم أنهم أتاحوا لأتباع الديانات الأخرى أن يرتقوا إلى أسمى المراكز فى بلادهم .

وهذا أمر لم تعرفه البلاد الغربية إلا فى عصور متأخرة ، وفى بعض الدول دون بعض ، حيث نرى بين حين وحين أن يهودياً يرأس الوزارة . ومع ذلك فإن باب الاضطهاد الدينى لم يوصد بعد. وإن من يطلع على الآداب الأوروبية الشعبية وغير الشعبية ليَرى كيف يحاول المسيحيون النيل من المسلمين ومن صاحب الرسالة بصفة خاصة . فهم يريدون تنشئة الأجيال على كراهية المسلمين والحط من دينهم .

ومما يزيد فى كراهية الأوروبيين وعدائهم للإسلام أنهم يعلمون أن هذا

الدين يقف حائلا بينهم وبين السيطرة التامة على بلاد المسلمين . ذلك لأن الرابطة الدينية بين هؤلاء تعترض سبيلهم إلى تحقيق أطماعهم الاستعمارية التى لا تكاد تقف عند حد . ولو استطاعوا أن ينهجوا مع المسلمين ما نهجوه مع هنود أمريكا لما ترددوا لحظة واحدة . ألم يذهب أحدهم فى أوائل القرن الحالى إلى حض المسيحيين على نبش قبر الرسول وتحطيم الكعبة وإلى القضاء نهائياً على الأمة الإسلامية ؟ (١)

قد يقال إننا نفرط ، بدورنا ، بعض الإفراط فى تحليل عواطف الأوروبيين تجاه المسلمين ، وربما ظن بعض الناس أن التعصب المسيحى قد أفسح مكانه للتسامح والشفقة والإحسان . لكننا ندفع عن أنفسنا تهمة الغلو بما قرأناه أخيراً لكاتب فرنسى يأخذ على الأمريكيين أنهم يعطفون على أهل الجزائر ومراكش فى ثورتهم ضد الاستعمار الفرنسى ، ويذكرهم بأنهم فعلوا أكثر مما يفعل الفرنسيون ؛ فإنهم أبادوا قبائل الهنود الحمر ، ولم يحتفظوا من هؤلاء الهنود إلا بعدد قليل كوسيلة للدعاية السياحية . فكأن هذا الكاتب يطلب إلى الأمريكيين أن يطلقوا أيدى المستعمرين فى رقاب ملايين المسلمين ، حتى لا تضيق أراضيهم بمئات الألوف من الأوروبيين الذين لا تتسع لهم بلادهم ! إذن لو استطاع أمثال هذا الكاتب أن يبيدوا المسلمين لفعلوا . ولا يحول دونهم ودون ذلك سوى الرابطة الإســـلامية فى مختلف أقطارهم .

لذلك نراهم لا يألون جهداً فى محاربة هذه الرابطة باسم التعصب الدينى حتى يتحلل المسلمون من روابطهم فيسهل القضاء عليهم فرادى . غير أنهم لم

---

(١) انظر تاريخ محمد عبده ج ١ ص ٨٠١

ينجحوا إلا فى تسخير نفر قليل من زعانف المسلمين لنشر آرائهم ، أى ممن فقدوا الاعتزاز بدينهم ، ولم يستعيضوا عنه بحبهم لوطنهم . « فمثلهم كمثل من يهدم بيته ، قبل أن يهيىء لنفسه مسكناً سواه ، فاضطر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته . » (١)

وهؤلاء هم من وصفهم جمال الدين وتلميذه فى العروة الوثقى بأنهم الدهريون ممن يستترون باسم الإسلام ، وينشرون آراء الإلحاد باسم العلم الحديث . وقد عجب الأفغانى لأمر كثير من سذّج المسلمين الذين يقعون فى حبائل الدعاية الاستعمارية مع محافظتهم على عقائدهم ، وتمسكهم بإيمانهم ؛ ومع ذلك فهم « يسفكون الكلام — كما يقول — فى ذم التعصب ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بذلك يشقون عصاهم . . . ويخربون بيوتهم بأيديهم . . . »

لقد نسى هؤلاء السذج أن الغربيين الذين ينشرون بينهم مثل هذه الآراء ويزعمون أنهم أعداء للتعصب هم أكثر الناس تعصبا فى الحقيقة ، وأحرصهم على حماية الدعاة إلى دينهم والقائمين بنشره فى البلاد الخاضعة لسلطانهم ؛ كما يتجلى ذلك التعصب فى تضامن البلاد الأوروبية ، على اختلاف مذاهبها السياسية ، وفى تعاونها للقضاء على كل حركة استقلالية يقوم بها المسلمون فى إحدى المستعمرات الأوروبية . وقد لمسنا عن قرب كيف شوهت ثورة المغرب الأخيرة ، وصورت فى مختلف الصحف الأوروبية بأنها وليدة التعصب الدينى ، مع أن قليلا من العقلاء والمنصفين من الأوروبيين يقرّون أنها وليدة البؤس والفقر ، إن لم تكن فى رأيهم دليلا على رغبة الشعوب فى تقرير مصيرها .

(١) العروة الوثقى ص ١٠٧

وإن ما نراه اليوم من اجتماع كلمة الأوروبيين على الطعن فى كل نهضة إسلامية هو ما لحظه أصحاب العروة الوثقى منذ سبعين عاما فى سياسة الدول المسيحية ، فإنك « تراهم على اختلافهم فى الأجناس وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسيات وترقب كل دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم فى الدين ، وإن كان فى أقصى قاصية من الأرض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن ، وطم وجه الأرض ، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا ينتبه لهم إحساس ؛ بل يتغافلون عنه ، ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية ، وليسوا من نوع الإنسان الذى يزعم الأوروبيون أنهم حماته وأنصاره . وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم . وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . » وقد رأيت أنت كيف تجاوزوه عندما بلغوا فى تنكيلهم بالمسلمين إلى أن تحالفوا مع من زعموا أنهم قتلوا المسيح ، ومهدوا لهم وساعدوهم لتشريد مئات الألوف من المسلمين الذين يظهرون لهم العطف باللسان ، ويضمرون لهم الفتك بالعمل الوئيد المستمر .

فليس للمسلمين أن يصدقوا إذن ما يقال عنهم من أنهم متعصبون وأنهم مفرطون فى تعصبهم ؛ بل أولى بهم أن يعلموا أن تمسكهم بالدين واعتزازهم

بالرابطة الإسلامية هو السلاح الذى يملكونه فى وقتهم الحاضر ، فى انتظار أن يقذفوا بأعدائهم إلى البحر كما فعل أسلافهم من قبل ، ولكن دون أن يهبطوا إلى ما هبط إليه الأوروبيون من البطش والعدوان . لقد سبق أن طردهم صلاح الدين من الأراضى المقدسة ، ولكننا لم نسمع منهم هم أنفسهم إلا أنه كان مثال الفروسية والسماحة الإسلاميتين . ذلك أن الدين الإسلامى لايرضى إكراه الناس على مالا تطمئن إليه قلوبهم ، ولوكان الإسلام نفسه ؛ بل إنه يصارح المفرطين فى التعصب بأنهم ليسوا مسلمين . أفبعد ذلك يقولون إن المسلمين متعصبون وإنهم يمقتون أهل الديانات الأخرى ويقسمون على إبادتهم ؟ أليس الأجدر أن يعترف الغرب بما يعلمه المسلمون حق العلم من أن « الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد . . . . »[1]

لقد نظر المسيحيون إلى الإسلام دائما نظرتهم إلى الخطر الأكبر الذى لايفوقه خطر آخر ؛ بل قال بعضهم إن الإسلام كان طعنة خنجر وجهت إلى المسيحية ، وذلك فى الوقت الذى يحث فيه الإسلام أتباعه على حسن معاملة أتباع المسيح بصفة خاصة ! ولا ندرى لماذا يصر أهل الصليب على تعصبهم ؟ ألم يأمرهم المسيح بمحبة أعدائهم ؟ فلماذا لايطبقون هذا المبدأ على المسلمين ، ولا سيما إذا كان هؤلاء لم يضمروا لهم حقداً حتى فى

(١) من كلام جمال الدين الأفغانى .

أيام قوتهم وسلطانهم ؟ والحق أن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ليس أمراً مستحيلا إذا طبق كل من الفريقين مبادىء دينه وتعاليمه .

لقد مضى الزمن الذى كان فيه أهل الشرق غفلا يؤمنون بما يوحى إليهم به دعاة الغرب وزعانفه . فهم يعلمون حقا أن الغرب لا يريد بهم خيرا ، وأنه لو استطاع أن يمحوهم محواً لفعل ، وأن مايحفظ عليهم بقاءهم حتى الآن هو أن دول أوروبا عجزت عن القضاء على الرابطة الإسلامية التى يسمونها تعصبا وهى فى الحق ليست تعصبا . ولو سلمنا جدلا أنها كما يقولون ، لما كانت شيئا ذا قيمة بجانب تعصب مسيحيي أوروبا ؛ إذ « قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات فى المعاملات . »

فإذا بقى بعد ذلك شىء من ريب فى نفوس هؤلاء الذين يحلو لهم أن يخدعوا أنفسهم بأساليب الغرب ودعايته ، فليس لهم إلا أن يلقوا ببصرهم على ما يصطنعه الأوروبيون من وسائل الشدة والقهر فى المستعمرات الإسلامية التى ما زالت فى أيديهم ؛ وعلى التقدم الهائل الذى تخطوه البلاد التى نجحت فى التحرر من سيطرة الغرب .

ولكننا نؤكد آخر الأمر أن التعصب الأعمى لن يفيد المسلمين ولا المسيحيين شيئا ؛ إذ لا يورث هذا التعصب سوى الحقد والكراهية ، والشر لا ينتج إلا شراً مثله . إذن فالسبيل القويمة إلى النهضة الإسلامية هى أن ينقطع المسلمون عن المفاخرة بماض مجيد لم يكونوا أمناء عليه ، وأن يعلموا أن عصر المعجزات قد انقضى ، وأنهم لن يكونوا أهلا للانتماء إلى هؤلاء الذين يفخرون بهم إلا إذا لحقوا بهم عن طريق العلم والعمل والأخلاق والوقوف على سر تقدم الغرب وقوته ومحاولة الوصول إلى مرتبته فى العلم والقوة .

---

(١) للأمام محمد عبده فى الاسلام والنصرانية ص ١٦١ .